و تفحما في سبيل الحب

و تفحما في سبيل الحب

تأليف : آصف محمد

الطبعة الأولى : ٢٠١٩

الترقيم الدولي : 978-9922-9087-2-4

© جميع حقوق النشر محفوظة للناشر ، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب ، أو جزء منه ، أو نقله ، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات ، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية ، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع ، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق .

آشور بانيبال للكتاب
بغداد - شارع المتنبي
009647706565807
darashurbanipal@gmail.com

رواية

و تفحما في سبيل الحب

آصف محمد

الإهداء

الى كل أنثـى بمـا تحملـه هـذه الصفـة مـن معـاني ، الى كل رجـل بمـا يحملـه هـذا اللقـب مـن مواقـف ...

كان يجلس وحيدًا يمسح دموعه ، يداه ترتعشان ولا يكاد يرى ما بين قدميه ؛ اجتمع عليه ضعفُ بصره و الدموع ، اخرج منديلًا من جيبه مسح دموعه و ألقى نظرة الى الساعة و اذا بها الثانية ظهرًا ، اسرع يركض كالمجنون الى ان وصل الى المكان المخصص للحافلات ، استقل الحافلة وجلس الى جانب رجل طاعن في السن شابَ حتى شعرُ ذراعيه ... ظل يرمقه بنظراته التي تنبع من عينٍ قد تجعّد كل ما حولها. ظل يتساءل بداخله «لمَ يحدق بي هذا الرجل ؟!» تلمّس عينه ولحيته المهملة ، قال في داخله وهو مبتسمٌ «الحمد لله قد جفّت دموعي اثناء الركض ، ولكن لما هذه النظرات ؟

لم تدمْ نظرات العجوز طويلًا حتى قال :

- يا بني .. لقد تجاوزت السبعين عامًا وسمعي قد ضعف ، مع هذا اسمعُ دقات قلبك .. هل تشكو من الخفقان ؟

كمال : لا واللهِ يا عم لكني جئت راكضًا كي اصل بالوقت المطلوب الى الكرخ (الجهة الثانية من بغداد) كما تعرف في بداية كل اسبوع زحامُ السيارات لا يرحم .

وهو يؤشر الى كثرة السيارات حولهم ..

هز العجوز برأسه وقال:

- يا بني اعلم ذلك ولكن لا شيء يستحق ان تُتعب قلبكَ هكذا.. على مهلك .

صمت كمال وقال في داخله «يا عم اخشى ان اطرد للمرة الثانية».

نـزل مـن الحافلـة ودخـل الى المحـل، قـال ربُّ عملـه - اسـطة[1] مهنـد- وهـو يـؤشر بالمفـك غاضبًـا :

- كـمال ايـن كنـت ؟ ألم تقـل إنهـا محـاضرة واحـدة فقـط؟ ايـن كنـت يـا ولـد ؟

كمال -وعيناه تدمع من الخجل- :

- لقـد طـردني الاسـتاذ مـن القاعـة فذهبـتُ لأتحـدث مـع مقررة القسـم وانتظرتُهـا الى ان اكملـت اجتماعها.

اسطة مهند وهو يضحكُ بصوت عالٍ :

- هل ضربتَ الاستاذ احدى ضربات الكونغ فو خاصتك ؟.

كمال وهو يبتسم :

- لا واللـهِ لقـد كنـتُ نائمًـا ؛ فلـم أنـم منـذ البارحـة.. حسـنًا سـأرتدي بدلتـي دع الإطاريـن الخلفيـين لي .

انهـى كـمال عملـه مسـاءًا وعـاد وهـو يفكـر بمشروعِـه الـذي لم يصمـم منـه شـيئًا وبالامتحانـات التـي سـوف تبـدأ الاسـبوع القـادم .. دخـل و اغلـق البـاب الخارجـي ، رأى الصالـة معتمـة .. ظـل ينـادي :

- امي! امي! لقد عدتُ أين انتم؟

مـشى عـدة خطـوات .. نظـر الى المطبـخ وجـد منـى تبـكي وتـكاد ان تخـرج روحُهـا مـع الدمـوع ، ألقـى بحقيبتـهِ عـلى الأرض وجـاء إليهـا

١ اسطة : لفظ انتقل الينا من العهد المملوكي وتعني المعلم او الحرفي البارع

مسرعًـا ، امسـك بيدهـا و هـو يقـول :

- منى حبيبتي لمَ تبكين؟ ماذا هناك ؟

اختـه : كـمال اليـوم ذهبـتُ مـع امـي للمستشـفى ؛ انَّ هـذا المـرضَ قاتـل ونسـبةُ الشـفاء منـه قليلـة ، لقـد رأيـتُ المـوتَ في اعينهـم جميعًـا ، حتـى امُّـك يـا كـمال اخفـتْ دموعهـا بحجـةِ اشـعة الشـمس .

كـمال: تعـالي نجلـس هنـا كفـاكِ لا تكـوني متشـائمة عـلى هـذا النحـو.. سـتكونين بخـير؛ لقـد شُـخِّصَ المـرض وهـو في بدايتـه .

كان كـمال يتضـور جوعًـا .. و لكنـه أكل مـن همـوم اختـهِ وصعـد لغرفتـه ليخلـدَ الى النـوم ، وضـع رأسـه عـلى الوسـادة ، سـمع امـه تنـادي :

- كمال بنيّ أأدخل؟

كمال : نعم امي تفضلي .

جلسـتْ عـلى السريـر وهـي تنظـر حـالَ ولدهـا كأنـه جنـديٌّ عائـد مـن جبهـةِ القتـال .. قالـت :

- هيا لقد جهزتُ العشاء ، كُل يا عزيزي واخلد الى النوم.

كمال : لستُ جائعًا امي فقط اريد ان انام.

ردت عليه بحزن :

- حسنًا حبيبي نَم تُصبح على خير .

و اطفئت مصباح الغرفة ...

في الصباح تناول كمال افطاره ، حمل حقيبته ، «كمال دقيقة يا كمال » نظر خلفه وقال :

- نعم يا اخي ، لمَ انت مسيتقظ ؟ لا زال الوقتُ مبكرًا لدوامك!

محمد و هو يفرك بعينيه :

- كمال أريدك اليوم ان تأتي معي للمدرسة ...

قالها وفمه الصغير متقوس ...

- انه اجتماعُ اولياء الأمور ، كان أبي يحضر دومًا.

ثم جلس بزاوية البيتِ عند المرآة وبدأ بالبكاء..

تقدم كمال نحوه و يكاد ان ينفجر بكاءًا وهوًى؛ كيف طرح الاشتياقُ اخاه ارضًا!

حمله ومسح دموعه قائلًا :

- محمد ألم اقل لك لا تبكِ كالنساء!

وهو ينظر الى عيني محمد الصغير النقيتين ..

محمد : حسنًا اخي ، انا رجل قويٌّ مثلك و اجيد الكونغ فو افضل منك .

وهو يبتسم ... حمل كمال اخاه ووضعه في فراشه وخرج الى الجامعة.. استقل الحافلة ، جلس قرب النافذةِ يفكر «كيف قلتُ لمحمد هكذا ! هو مجردُ طفل لا يعي شيئًا ، واذا كان الرجلُ لا يبكي لمَ افعلُها انا ؟ نحن كبرنا على هذا المفهوم (البكاءُ

للنساء فقط) هذا المفهومُ الذي سلب طفولةَ اغلبنا.. ألم يخلقِ اللهُ الدموع ؟ أليس كل ما يُخلق يُنتفع به ؟! لماذا نركز على العضلات الصلبةِ و الصوت الخشن و الشعر النابت تاركين الجوهر الحقيقي للرجولة ؟...

ألم تصادفوا مفتول العضلات صاحب اللحية الكثيفة الذي تنام حبيبته يوميًا غارقة بدموعها ؟

ثوروا على هذه المفاهيم الخاطئة يابني آدم ..

رجلٌ بلا دموع ليس برجل ، هو ذكرٌ فقط .. تذكروا دائمًا؛ الدموعُ تجعلك تعلم معنى كونك انسانًا، تُفرغ من همومكَ بدلًا من تفريغها بالناس ...

وصل كمال الى الجامعة وهو يتساءل «كيف سأوفق بين العمل والدراسة وعائلتي ؟ يا الهي خذني وأرحني لقد تعبتُ كثيرًا ؛ منذ ان توفي ابي وانا لا اشعر بهذه الحياةِ ولا اجني سوى المشقة».

مشى سارحًا واذا بزميله يناديه :

- ايها القوي تعال نحن هنا ..

نظر كمال فرأى مجموعة من زملائه جالسين في النادي الطلابي، التحق بهم ، جلس صامتًا دون ان ينطق بكلمة و هو يفكر..

إلتهى كل منهم بمراجعة دروسه الا غادة ظلت ترمقه بعينيها ... مالكم يا معشر البشر تقدسون العيون الى هذا النحو ؟!

رفع كمال رأسه وقعت عيناهُ بعينيها ، مضت ثوانٍ وهما يحدقان

ببعضـما .. ثـم نهـض ولم يقـل شـيئًا.

بـدأ الـدرسُ وبـدأ معـه عشـقُ تلـك الفتـاة يـدورُ في رأسـه ويـدور .. ظـلّ يفكـر بتلكـما العينـينِ وسـحرها الفـوري ! ، لمـاذا نظـرت هكـذا ؟.

انتهـى الأسـتاذ وخـرج مـن القاعـة وبينـما كـمال يجمـع أغراضـه جـاءت إليـه تقـول :

- كـمال هـل يمكنـك أن تخـبرني مـاذا هنالـك ؟ لمَ انـت مهمـوم هكـذا ؟ نحـن زمـلاء ويمكننـي ان اشـاركك همومـك.

«اخـشى عليـكِ مـن همومـي غـادة» قالهـا بحـزن وانـصرف مسرعًـا خائفًا ان يُخيـب ظـنُّ محمـد الصغير..

في طريقـه الى مدرسـة اخيـه ظـل يفكـر ويفكـر بتلـك العينـين وبصوتهـا وطولـه الموجـيّ العجيـب كأنهـا تتعامـلُ بحنيـة امـهِ التـي مـا عـادت تهتـم بـه منـذ وفـاة والـده ، وكيـف ذا وقـد هاجمتهـا الدنيـا مـن كل جانـب دون رحمـة . كان وجهُهـا كهـلالِ العيـد الـذي اختلـف عليـه المتأسـلمون ! ، بإختصـار لقـد أصيـب كـمال بـشيء مـن الأعجـاب او ربمـا عشـقها ! ، وعليـه مراجعـةُ القـدر لـيرى مـاذا سـوف يكتـب لـه مـن دواء ...

ولكـن كيـف حصـل هـذا ؟ كـمال ليـس مـن اولئـك الشـبان الذيـن يهـوون الخـروج مـع الفتيـات ومغازلتهـن ، كان عندمـا يريـد ان يُفـرغ طاقتـه يخـرج للتمـرّن عـلى الفنـون القتاليـة ، او يذهـب ليرسـم بعـض اللوحـات التـي لا يفهمهـا إلا ذوقـه ، كان شـابًا عصبيًـا بقلـب طفـلٍ حنـون ، تؤلمـه أدقُّ التفاصيـل ، وتفرحـه اسـخفُ الأمـور ، لا يتوقـف عـن

التفكير و الأحلامُ تحتل جزءًا كبيرًا من يومه ...

ربما لأنه سمع و رأى ما كان يحتاج ، و كم من علاقة مررتم بها بدأت بكلمة حنونة او نظرة عميقة ربما رسالة الكترونية ! ...

و ها قد اختُتم الاجتماع ، عادا معًا وظل اخوه يمازحه ويتجاريان على الرصيف عودةً الى المنزل .. وصل محمد قبله ودخل ينادي :

- امي .. امي لقد مدحني الجميعُ أنا مجتهدٌ ، لقد قبلتني المطبقةُ الجديدة انظري الى أحمر شفتيها على خدي ..

وهو يقفز فرحًا ..

الأم : حقًا ! يا قلبَ امك ، ليس النجاحُ بجديدٍ عليكَ تعالَ لأقبّلك في الخدّ الآخر .

محمد : ولكنكِ لا تضعين احمرَ شفاه ولا تضعين العطرَ الذي تضعه (ست مريم) ..

وبينما هما يتحدثان دخل كمال رمى حقيبته وحقيبة محمد ، وقال :

- امي لقد هزمني هذا البطل ، ولقد اوقعهم هذا الشقيُّ في حبه .

«حسنًا أذن ، سوف نخرجُ بمناسبةِ هذا اليوم الرائع » قالت الأم وهي قريرة العينين ..

كمال: حسنًا امي سوف اصعد واخبر منى لتجهز نفسها .

محمد : وانا سوف ابدل ملابسي لكن لوحدي يا امي انا رجل .

وصعد راكضًا ....

عندما تشعر البنت بالفخر في مجتمعاتكم البشرية هل تصرخ ايضا (أنا امرأة) بفخر وأعتزاز ؟

لا تنسبوا جوابكم للشريعة ! فالله براء مما حرفتم يا سادة ! ...

طرق البابَ فسمحت له اختُه بالدخول ، جلس بقربها ، قبّل رأسَها ويكاد ان يُعصر قلبُه حزنًا لما رآه من فعل الدمع بعينيها الناعستين ..

كمال : سوف نخرج اليوم ونأكل العشاء خارجًا ، قومي هيا سأحضر الكاميرا وألتقط لكِ الكثيرَ من اللقطات.

منى : لقد قلتَها الكثير الكثير !

كمال: حاضر سيدتي هيا لا تتأخري كالعادة ارجوكِ .

ذهبوا معًا لأول مرة بعد وفاة رب الأسرة ، لا زال الأثرُ واضحًا في ملابس الأم السوداء ..

بينما كان محمد يتشقلب في الحديقة ويتدحرج ، و امه تتحدث مع منى وتطرد عنها الحزن وتعرّفها بأسرار السعادةِ والتفاؤل .. جلس كمال تحت تلك الشجرة المعمرة يفكر برغدة .. «آهٍ يا رغدة ماذا فعلتِ بهذا الشاب ! » .

هل تعلمون شيئًا ؟ قد يكون هنالك أعجاب لمصلحة او لرغبة معيّنة ، وقتيًا زائلًا لا محالة ..

لكـنْ بعـضُ المشـاعرِ حقيقيـة لدرجـة لا يمكـن تصديقُهـا ، تجعـل مـن صاحبهـا انسـانًا سـعيدًا قويًـا لا يمكـن هزمـه كأنهـا اكسـير الحيـاة ، او تجعلـه هزيـلاً لا يقـوى عـلى مواجهـة ذبابـة تقـفُ عـلى جبينـه !

ومـا اصعـبَ البدايـاتِ عندمـا تخطـط كيـف ومتـى سـتبوح بـكل هـذه المشـاعر والأحاسـيس ، وهـل سـيكفي الـكلام ؟ وكيـف سـتعبّر لغـة جسـدك ؟ ومـاذا سـترتدي يومهـا ؟ حقًـا صعبـةٌ هـي البدايـات ...

عندمـا تبـدأ باختيـار الموسـيقى او الشِّـعر الـذي يناسـبُ مـا تمـرُّ بـه ، سـتكونُ هـذه البدايـات مصـدرَ سـعادة دائـم لـك الى ان يشـاء اللـه .. أو سـتجعلك هـذه التفاصيـل تبحـث عـن آلـةٍ مـا لمسـح الذاكـرة.

سـترغب يومًـا مـا بـأن يحـدثَ زالـزال و يبتلع ذاك المـكان الذي تسـارعتْ فيـه نبضـاتُ قلبـك ، او سـترغب بالجلـوس في ذاك المـكان وتتذكـر كلَّ مـا جـرى وانـت مبتسـمٌ فرحـانٌ كأب رأى ابنـه قائـدٌ لقومه ..

وهنـا قـرر كمالنـا ان يبـدأ بالتقـرب مـن رغـدة ويـرى ان كانـت تحمـل في قلبهـا شـيئًا لـه ولـو كان بسـيطًا ؛ لأنـه علـم بأنهـا في نهايـةِ المطـاف ستعشـق رجـلاً احبهـا بجنـون و اخـلاص ! صحيـح ؟ أم ستعشـق مـن يدمـي عينيهـا ويتسـلط حتـى يمحـي كيانهـا ؟..

بعـد رجوعهـم للبيـت خلـد الجميـعُ الى النـوم بإسـتثناء المولـع الـذي جلـس يحـضّر كلـمات الغـد ، وكـم مـن خطـاب وبـوح ضرب بعـرض الإرتجـال !! ظـل يفكـر بالطـرق التـي سـيعرف مـن خلالهـا مـا في قلـب تلـك الفتـاة أو قـد تقـوده ربمـا !..

حلّ الصُّبح ، ذهب كمال الى الجامعة وقبل المحاضرة الاولى فتش في النادي الخاص بكلّيته ، وجدها لوحدها فراحَ يجلسُ بالقرب منها ..

كمال: صباح الخير رغدة ، كيف حالك ؟ لماذا تجلسين وحيدة اين البقية؟

رغدة : صباح النور ، اهلاً كمال .. لا علم لي !

كمال: ما الذي حصل رغدة ؟ لمَ انتِ حزينةٌ هكذا ؟

- اخشى عليكَ من همومي يا كمال .

تفاجأ كمال عندما نظر إلى شفتيها وهي تقولها..كأنها توبخه على تلك العبارةِ التي جرحت هذه الفراشةَ ..

- حسنًا ، كما تشائين .. فقط كوني بخير.

قالها وانصرف الى القسم غاضبًا ، هنا قد أدرك كمال مدى قباحة و وجَع تلك الجملة التي قالها لها عندما ارادت ان تطمئنّ عليه.

ظل كمال ينظر الى باب القاعة بإنتظارها ، ولكنها لم تدخل ، بعد انتهاء المحاضرة ذهب يبحث عنها و لم يجدها ..

نظر الى الساعة واذا به وقتُ العمل ، اراد ان يغيب عن العمل لكن تذكّر انه رجلُ البيت الآن وعليه تحمّلُ المسؤولية ، سحبَ نفسًا عميقًا وحمل خيبةَ اليوم متجهًا الى المحل..

في اليـوم التـالي جـاء كـمال وعينـاه يسـتوطنها اللـونُ الأحمـر؛ لم ينـم ليلـة البارحـة فقـد ظـل يفكـر بمـا قالتـه رغـدة وبمـا سـتقولُه اليـوم .. رآهـا جالسـة في نفـس المـكان فاتجـه نحوهـا مسرعًـا ...

لكـن أنـا مـاذا سـأكتب في دفـتري ؟ هـل اكتـب خطواتِـه هـذه كإثـم؟ ام اكتـب عاشـقًا يركـض وراء عشـقه ؟ والعاشـق معـذورٌ وإن قتـل في سـبيل الحـب ؟!

لقـد أتعبنـي هـذا الولـد ؛ مـا اصـدق قلبَـه ، بداخلـه طفـل ولكـن أيّ طفـل ! قـوي البنيـة ذا سـاعدٍ مفتـول.

- صباح الخير رغدة كيف حالك؟

وهو واقفٌ امامها ينظر بعينيها..

- لستُ بخير ..

كأن احـدًا مـا غـرز سـكينًا في صـدره فقطـع تيـار الهـواءِ في داخلـه .. تقـدم نحوهـا وجلـس ، ثـم قـال :

- ماذا هنالك رغدة ؟ اخبريني ..

قالت رغدة :

- كـمال لقـد أخـذ رجـالُ الأمـن والـدي والكثـير مـن العلـماء ليثبتـوا ان بلدَنـا لا يملـك اسـلحة كيمياويـة و بايولوجيـة ، ليتنـي لم أرَ تلـك النظـرة في عينيـه وهـو يودّعنـا انـا و أخـي الصغـير، و كيـف قـال لأمـي «اعتنـي بهـم» وقبّـل رأسـها بسرعـة كبـيرة كأن احـدًا مـا يلاحقـه ، اننـي خائفـة يـا كـمال ان اندلعـت الحـربُ ايـن سـنذهب ؟ والدراسـةُ هـل سـأُكملُها ؟.

☯ ☯ ☯

نعم لقد طالبت الحكومةُ بمزيد من الوقت لإثبات عدم امتلاكهم لتلك الأسلحة لكن لن تمنح مزيدًا من الوقت؛ فقد قدمت بعضُ الدول طلبًا الى مجلس الامن للحصول على تفويض لشنّ الحرب، فيما عارضت دولٌ أخرى التدخلَ العسكريّ وانطلقت بعض المظاهرات رافضة الغزو.

لكنَّ الغزوَ الحقيقي كان قد بدأ على كمال وانزلت رغدة قواتها وكان الأوان قد فاتَ لأيِّ حِراك مقاوِم من قِبلِه..

هذا هو الحبُّ يا سادة ؛ هو حربٌ مدافعُها الكلمات ، دباباتُها ردود الأفعالِ وجنودُها النظرات .. احتلالُ اعظم مدينةٍ قد لا يكون بصعوبة احتلال قلب انسانٍ!.

ان لم تكن اهلاً للحرب فلا تخُضها ، ان لم تمتلك رغبةَ الجنديّ في الموتِ دفاعًا وفداءًا لمن تحب او حتى أن تموتَ في طريقك إليه فلا تقحم نفسك ؛ لأنّ النتيجةَ ستكون وخيمة وتستمر الى ما لا نهاية.. وسيلعنُك كلُّ من يمرّ على أطلالِ القلبِ الذي احرقتَه..

كمالُنا كان يعلم أنه جنديٌّ تلك الحرب وأنه قادرٌ على خوضِها والفوز بقلب تلك الأنثى ..

وآهٍ لهذا القلبِ و هل تستحقه كل النساء ؟!

جلس كمال يهدئ من روعها ويخفف عنها :

- رغـدة.. انـا الى جانبـكِ إن احتجتِنـي سـآتي فـورًا ، لا تقلقـي ارجـوكِ ابتسـمي كـما كنـتِ تفعلـين كلَّ يـوم.

وأمسك بيدها وهو يقول:

- احببتـكِ يـا رغـدة ولقـد اتعبنـي حمـل هـذا الـسر ، لقـد أحـرق جـوفي وبـات الدخـانُ يتصاعـد مـع الزفـير كلّـما فكـرتُ بـكِ ، انـا لا اعـرفُ كيـف حصـل هـذا لكنني صرت أعشـقكِ.

احمـرّت يدُهـا مـن قـوة المسـكة .. سـحبتها وهـي تطأطـئ عينيهـا -ويـا إلهـي العظيـم كيـف صـوّر تلـك العيـون ...

- كمال لنتحدث لاحقًا ، لقد بدأت المحاضرة هيا بنا .

دخـلا الى المحـاضرة .. كان كـمالُ معتـادًا عـلى الجلـوس في آخـر القاعـة ، لأنـه غالبًـا مـا يـأتي متأخـرًا ، وهـي دائمًـا تكـون في المقدمـة عنـد النافـذة ..

ظـل يراقبهـا وهـي شـاردة الذهـن ، ويراقـب الهـواء و هـو يقلّـب تلـك الخصـلات السـود يمينًـا ويسـارًا .. يـودّ لـو يغلـق تلـك النافـذة ولا تعـودُ تفتـحُ ابـدًا .. بـل لـو يبنـي حائطًـا بدلهـا لـكي لا تداعـبَ شـعرَها تيـاراتُ الهـواء المشاكسـة.

عندمـا انتهـى وقـت المحـاضرة، ظـل ينتظرهـا امـام بـاب القسـم ، ولمـا خرجـت رغـدة قالـت :

- كـمال دعنـي اذهـب و افكـر بمـا سـمعتُ اليـومَ منـك لكـن ارجـوك لا

تُسيء فهم اي شيء من عندك .. دعني آخذ وقتي ارجوك ..

نظر الى يديه وقال :

- حسنًا .. لكني لا أريدُ ان اخسركِ ، مهما كان قرارُكِ لا تبتعدي عني .

غادر الجامعة الى عمله تاركًا قلبه بين يداها الطفولية ...

ظل يفكر طوال ساعات العمل ، و ما أحلى و أحر انتظاره ذاك ، كجدة تنتظر حفيدها الأول ، حتى سمع اسطة محمد يقول بنبرة غضب :

- هيا لقد أظلمت بنيّ .. هات المفك ..

كمال وهو يتلعثم :

- عفوًا اسطة ، حالًا .

بعد انتهائهم رجع الى البيت ، وجد امه جالسة في المطبخ وعيناها مليئتانِ بالحزن والخوف ..

- السلام عليكم ، اماه لماذا تجلسين هنا بمفردك ؟!

- حالةُ اختك تزداد سوءًا ، نسبة كريات دمها البيض بدأت تنخفض ، اليوم اغمي عليها في عملِها ، يجب ان تتعالج ياكمال.. يجب! ..

انخفض صوتُها واجهشت بالبكاء..

جلس كمال الى جانب والدته ، امسك بيدها وقبّل جبينها وقال لها :

- أمي ، سأتحدث مع ابن عمتي وائل ، وسآخذ كل الفحوصات إليه لعله يساعدنا في علاجها خارج البلاد ، ولكن أمي إنها متعبة نفسيًا منذ وفاة والدي رحمه الله .. ارجوكِ لا تضعُفي أمامها ..

أجابته والدته:

- ان شاء الله يا عزيزي ، سأحضّر العشاء ، استحم وتعال نأكل سويًا ..

وفي طريقه توجه الى غرفة منى .. متوسلًا بدمعه ان لا ينقض على وجنتيه ، لم تكن في غرفتها ؛ كانت عند محمد تساعده في حل الواجبات.

حلُّ الواجبات .. إنها ككابوس مزعج في ليلة عاصفة ممطرة هكذا يراها الطلاب وحتى المجتهدينَ منهم ، ربما يحتاج الكثير من ممارسي التعليم الى بعض الصَّقل ودراسة الحب قبل البدء بإعطاء الدروس !!..

- أخي ..ألستَ مهندسًا ؟ تعالَ وساعدني في هذه المسألة ، ان لم احلّها فسوف اقفُ على رِجل واحدة طوال الدّرس امام ياسر و عصابته .

قالها محمد بنبرة قلقة وخائفة من عقاب المعلمة ومن استهزاء

زملائـه في الصـف.. يـا إلهـي مـا اجمـل بـراءة الأطفـال و مشـاجراتهم ، يتشـاجرون ويتشـاجرون ثـم يعـودون الى بيوتهـم سـويًا ..

قال لمحمد :

- تعـالَ يـا بطـل سـأجعلك تقـومُ بحلهـا عـلى السـبّورة و سـيصفق لـك يـاسر والآخـرون .

نهضـت منـى واسـتأذنت منهـم بحجـة انهـا نعِسـة ، و لكـن ذو القلـب العطـوف يعلـم انهـا ذاهبـةٌ لـذرفِ الدمـوع في احـدى الزوايـا.. خـاف عليهـا فهـي لا تجيـد السـباحة .

انـه المنقـذ الـذي وظّفـه ابـوه بعـد رحيلـه ، ولكـن عليـه اولاً ان يحـل مشـكلةَ آخـر العنقـود ثـم يذهـب ليبلغهـا عـن موضـوع علاجهـا ويهدّئ مـن شـأنها.

جلـس هـو ومحمـد عـدة سـاعاتٍ حتـى انتهيـا ، تـرك محمـد نائمًـا وتوجـه الى غرفـة منـى ، و لكنهـا كانـت نائمـة.

حسـنًا انهـا فرصـةٌ ثمينـة للحصـول عـلى بعـض الراحـة التـي امسـت كالحلُـم بالنسـبة إليـه ، قصـد غرفتـه و بـدل ثيابـه ، أراد النـوم .. مـاذا ؟ النـوم ؟ و هـل ينـام العاشـقون ؟

كيـف ينـامُ و هـو لا يـدري أنّ تلـك العيـون تبـكي الآن وقـد هطـل شـلالُ دمـعٍ امتزجـت ملوحتُـه بالكحـلِ طابعًـا اثـره عـلى وجنتيهـا الناعمتـين ..

سلسـل الافـكار .. عـلاجُ اختـه ، ثـم رغدتـه فالدراسـةُ التـي اهملهـا في آخـر فـترة ..

ظـلّ يفكـرُ بسلسـلتِه المهلكـة حتـى وقـت الآذان ، صـلى ثـم خلـد الى النـوم ..

في الصبـاح نهـض مـن النـوم فزعًـا وقـد تأخـر الوقـت ، كالـبرق ارتـدى ملابسـه و خـرج مسرعًـا دون تنـاولِ الإفطـار حتـى .

و عنـد وصولـه الى القسـم وجـد زمـلاءه جالسـين أمـام القاعـة ، ظلـت عينـاه تفتـش عـن رغـدة يمينًـا و يسـارًا ، لم يعـثر عليهـا ؛ هـرع يمـشي الى المكتبـة لعلـه يجدهـا تطالـع روايـة مـا تبـث في قلبهـا حبـه !..

كانـت تلـك الفتـاةُ تملـكُ عقليـة لا مثيـل لهـا ، بعـضُ النسـاء عندمـا ينضُـج فكرهُـنّ و يتحـررن مـن جهـل و تخلـف المجتمعـات يصبحـنَ بمرتبـةٍ مـن الثقافـة و الوعـي لا يصلُهـا ذاك الرجـلُ الـذي امـضى عمـره يقلّـب صفحـات الكتـب..

و اخيرًا وجدها ...

- ايـن كنـتِ ؟ لم اجـدكِ في النـادي فعلمـتُ انـكِ هنـا ، كيـف حالـكِ ؟ هـل نمـتِ جيـدًا ؟ هـل اتصـل والـدكِ ؟

امطـر عليهـا سـيلًا مـن الأسـئلة ويـداه تتـوق لضمهـا الى صـدره دون سـماع الأجوبـة حتـى !..

أجابت بتعاسة:

- لقد اتصل و تكلّم مع أمي وقال انهم لا يسمحون بالاتصال ، و لكن أحدُ الموظفين تعاطف معه فسمح له بذلك ، ابلغها أنه بخير و سينجزون المهمة بأسرع وقت و لا داعي للقلق عليه.

رد عليها كمال :

- الحمدُ لله لا تقلقي ، ان شاء الله سيعودُ عما قريب.. و يكفينا اللهُ شرَّ هذه الحرب المشؤومة التي ستأكلُ الأخضرَ و اليابس .

بقيا يتحدثان طوال اليوم عن استعدادهم للامتحانات النهائية .. وشَكا كلٌّ همَّه للآخرِ بالتفصيل الممل .

إن دققنا في الأحاديث التي يتحدثها العشاق مع بعضِهمُ البعض نجد أن تلك المناقشات و المحاورات الساخنة ما هي الا تفاهات ساذجة ! و لما نكون طرفا تناقضنا و قلنا «سوالف دافية» ...

ومرت الدقائقُ فالساعات حتى انتهى دوام الموظفين في المكتبة ، فحمل كمال حقيبته و حمل ما كانت تحمله رغدة من كتب ..

هذا النوعُ من الرجالِ - اقصدُ نوع كمال - لا يتحمل رؤية معشوقتهِ تحمل ريشة خوفًا عليها من ثقل الجاذبية المهمل !! أليسَ هذا جنونًا ؟ أليست مبالغةً في العِشق ؟ ألن يعرِفَ الحبيبُ مقامه فيتدلّل؟

خمنوا ودعوه يتأمل وللأيام دورها ..

بعضُ البشرِ ان علِموا درجةَ حبك لهم تغيرت ردودُ الفعل لديهم ، ربما لأنّ حزامَ الأمان لم يعد له جدوى ؛ فالسائق لن يسرعَ بعد الآن

، او أنَّ الشـوارعَ فارغـةٌ وتـكاد تخلـو مـن العوائـقِ والمخاطـر ..

و البعـض الآخـر يتغـير طرديًـا مـع العاشـق ، كلـما زادت درجـةُ حبّـك لهـم زاد حبُّهـم بـدوره .. هـذا النـوع نـادرُ الوجـود ليـتَ الجميـعَ يحظـى بـه.

خـرج الإثنـان معًـا الى خـارج الجامعـة ، و هـذه اولُ مـرة يخـرجُ بهـا كـمال مـع رغـدة سـيرًا عـلى الأقـدام ، المسـافةُ تسـتغرق خمسـة عـشر دقيقـة.. مهـلًا هـذا في توقيتِنـا و ليـس توقيتـه.. مـن يعلـم كـم ؟!

طـوال الطريـق ظـل كـمال يمازحُهـا و يلقـي بنكاتِـه و رغـدة تـكاد أن تختنـق مـن شـدة الضحـك رغـم سـخافةِ بعضِهـا.. و عنـد و صولهـما الى بوابـةِ الجامعـة قـال لهـا :

- أراكِ الاسبوع القادم ، إعتني بنفسكِ جيدًا .

و اخـرج دفـترًا و قلـمًا ، كتـب رقـمَ هاتـف بيتِـه ، وضـع الورقـة في يدِهـا ثـم قـال :

- إتصلي بي اذا احتجتِ ايَّ شيء ..

أجابته و قد احمرت وجنتيها :

- اعتنِ بنفسكَ انت ايضًا ، و لا تلتهِ عن مراجعةِ المواد ..

و أضاعت معجم اللغات.. صمتت لثوانٍ ثم اضافت :

- شكرًا لك يا كمال.. انت حقًا صديقٌ خيّر ..

وذهب كلٌّ في طريقِه ..

لكـن (صديـقٌ خـيّر) أوجعَـت جنديّنـا الباسـل ، لمـاذا لم تحدّثـه عـن الموضـوعِ الـذي أجّلتـه ؟

لكنها بوصفِها لـه كـ(صديـق) مزّقـت شرايـين قلبِـه.. هـل يعقـلُ انها لا تبـادلُ كـمال مشـاعرَه تجاهَها ؟!

بقيـتْ تلـك التسـاؤلاتُ تـراوده حتـى اليـوم الثـاني و هـو في طريقـه الى بيـتِ ابـن خالتـه وائـل الـذي سـيعملُ عـلى تسـهيل سـفر منـى للعـلاج.

تكلـم كـمال معـه و ناقشـا وضـع منـى التـي كانـت تعـاني مـن اللوكيميـا ، قـرّرا ان يكـون موعـد السـفر بعـد شـهر ريثـما يقـوم وائـل بالحجـز و الاتصـال ، و كذلـك تبـدأ عطلـة محمـد ليذهـب مـع امـهِ و اختـه ، فهـو لا يـزال طفـلًا لا يقـوى عـلى فـراق أمـه.

و نظـرًا للوضـع الـذي يمـر بـه البلـد مـن رعـب و عـدم اسـتقرار ، طلبـت أم كـمال منـه ان يرافقهـم و يبقـوا هنـاك لبعـض الوقـت ، فقـد تمكنـت مـن الإتصـال بأحـد معارفهـم المغتربـين ولقـد رحبـوا بهـم وطلبـوا منهـم ان يمكثـوا هنـاك حتـى يهـدأ الوضـع وتنتهـي فـترة نقاهـة اختـه ، حيـث أنّ والـد كـمال لـه فضـلٌ كبـيرٌ عليهـم ..

رفـض كـمال رفضًـا مطلقًـا ، و كيـف يـترُك بلـدَه و وطنـه ؟ لـكلَّ منّكـم وطـنٌ بهيئـة أنسـان (رغدتـه) كيـف يتركهـا ؟

هل تعلمون شيئًا ؟

إن الأنثى وطنٌ يا سادة ، وطنٌ يمدّك بالقوةِ و الأمان ، و لكنه يحتاج لنهضةِ جيفارا .. لحكمةِ غاندي .. لبسالةِ الأسكتلنديين ..

لا يوجد نوعية متوسطة منها يا صديق ، ان لم تكن ملكة فهي أفعى سامة !

حزموا الحقائب و قربت ساعات السفر بعدما عجِزت امُّ كمال عن اقناعه في السفرِ معهم ، خضعت لإرادته ؛ فلا يمكنُها إرغامُه ، و ثم انه التمس عذرًا ذكيًا و حساسًا : دراسته التي ذبل لأجلِها و ضحّى و ثابرَ طوال حياتِه للحصولِ على شهادةٍ مرموقة !

كثير من البشر يفنون أعمارهم ورائها ! كنا نتسائل فيما بيننا ، إن لم يحصل على واحدة هل يعتبر منبوذًا ؟

- حسنًا بني رغمًا عني سأتركك هنا ! و لكن ارجوكَ إن حدث ايُّ شيءٍ أذهبَ الى الريفِ عند اخوالك .. ارجوكَ يا كمال .

كانت توصيه و عيناها تذرف دموعًا لو وقعت على احدكم لأذابت أدَمته..

- لا تقلقي يا اماه سوف اتوخى الحذر ، و سأبعثُ لكم بالرسائلِ نهايةَ كلِّ اسبوع .

إستيقظ الجميعُ في صباحِ اليوم التالي ، و بعد تناولهمُ الإفطارَ ودّع بعضُهم البعض يسكبون الدموع و يتبادلونَ قُبلَ السّلامة غير عارِفينَ إن كان لهم لقاء بعد هذه الجلسة ام لا .. و بينما كانت الأم توصي

ابنها و تحذرّه دق الجرسُ و اذا بهِ حسام جاءَ ليوصلَهم الى المطار ، و بعد سيل الدموع و العبَرات على بابِ المنزل ذهبوا و كمال واقف في منتصفِ الشارع يلوّح بيده و يمسحُ خديه بالأخرى .

الآن صارَ وحيدًا.. متأملاً ان تسدَّ وحدته حوّاؤه.

دخل المنزل بعد الوداع ، اغلق الباب و خلدَ الى النومِ في الصالة .. هذا اولُ خرقٍ للقوانين ...

استيقظ بعد ساعات هلعًا تُبلِّلُ جبينَه قطراتٌ العرق لقد رأى شيئًا ما في منامه ! ماذا شاهدَ كمالُنا ؟ ربما كابوسًا يخص اهله المسافرين .. او رغدة الحبيبة ؟

ذهبَ الى المطبخ لشرب الماء ثم تناول هاتفَ المنزل و اتصل بصديقه عامر اخبره بسفر اهله طالبًا منه المجيء و المكوث عنده.

و ما أقدسها من اوقات عندما تمكث مع صديق حقيقي ، تتبادلون المزاح ، تتناقشون فيما بينكم و تتصاعد الوتيرة تلو الأخرى .

عامر هو صديق كمال منذ أيام الاعدادية غيرَ أنّهما تفارقا في الجامعة رغم تساوي المعدل ! كون والد عامر يمتلك نفوذًا في أحدى كليات الطبّ البشري ....

وصل عامر الى منزلِ صاحبه و بات عنده ، و في الصباح توجها معًا الى المسجد لأداء صلاة الجمُعة ، و في طريق العودةِ قال عامر:

- كمال من هي رغدة ؟ و متى اصبحتَ تكتم عني تفاصيلَ حياتك؟.

صُعق كمال عند سماعِه اسم رغدة ، و لكن كيف ؟ لم يتحدث و لا بكلمة عنها امامَه ، كيف عرف أسمها ؟! إلتزم الصمت و لم ينطق بحرفٍ واحد ..

- لقد سمعتكَ البارحةَ تنادي بإسمها و أنت نائم .. يا رجل لقد أخفتَني كان صوتُك عاليًا جدًا ..

- سأخبرك بكلِّ شيء و لكن بعد عودتي من العمل .

دخلا المنزل و بعد تناولهما الغداء خرج كمال الى العملِ تاركًا ضيفه وحده ..

جلس عامر يقلّبُ محطّاتِ التلفاز و يشاهدُ ما تعرضه القنوات الفضائيّة من تحضّر البلادِ للحرب و الأناشيد الوطنية ، فجأة رنّ هاتفُ المنزل ، فأسرع ورفع السماعة ..

- السلامُ عليكم .. هل كمال موجود ؟.

قالت المتصلة، فأجابها :

- وعليكم السلام ، لقد خرج للتو و لكن من أنتِ؟.

- لو سمحت إن عادَ اخبره بأنّ رغدة اتصلت به .

قالتها و أقفلت الهاتف.

ازداد فضولُه اضعافًا ، «من هي رغدة هذه؟».

وفي الليل بعد عودة كمال جلس الصديقان يتناولانِ العشاء ، كان كمال شارد الذهن قلقًا على أهله و مشتاقًا ..

و عامـر مترقـب و متلهـف ليسـمعَ مـا في حـوزة صديقـه مـن أحـداث و اخبـار جديـدة ، لكـنّ كـمال كان متعبًـا جـدًا سرعـانَ مـا خلـدَ الى النـومِ بعـد انتهائـه مـن العشـاء.

مضـت عـدة أيـام و غـدًا سـتبدأ الامتحانـات النهائيـة ، و وجيـفُ قلـبِ كـمال يسـمعهُ عـاشرُ جـار !! و كيـف لا ؟ ألا يجـدرُ بـهِ أن يكـون كئيبًـا و خائفًـا حالُـه كحـالِ الطلبـةِ المقبلـين عـلى امتحانهـم النهـائي؟

هـذا سرٌّ لا يعلمـه الا العاشـقون : حـينَ تسـتيقظ مـن نومِـك قبـل المنبّـه .. و إن كان الجـوُ ممطـرًا عاصفًـا و بـاردًا كأحـدِ القطبـين لـن يهمّـك ففـي قلبـكَ شيءٌ عظيـم يجعلـك صلبًـا دافئًـا ذا إرادة قويـة كالمقاتـل.

خرجـا مبكـرًا في ذلـك اليـوم ، أوصـل عامـر صديقه ثـم توجـه الى جامعته .. كان كـمال قـد اتصـل مسـبقًا برغـدة و اتفقـا ان يجلسـا معًـا لمراجعـة المـادةِ قبـل الإمتحـان ، لكـن في حقيقـةِ الأمـر كان يريـد مراجعـةَ التدقيق في تفاصيلهـا العالقـة في ذهنـه .. مراجعـة شـعوره بتسـارع دقـات قلبـه التـي لم يصـل إليهـا حتـى في اقـسى تمارين اللياقـة !!

كان جالسًـا في مكتبـة الكليـةِ ينتظرهـا و عينـاه لا تفارقـانِ بـابَ الدخـول ، حتـى أقبلـت قائلـة :

- مرحبًا .. آسفة لقد تأخرتُ في الأزدحام .. كيف حالك كمال؟ ..

- لا عليكِ ، ما أجملَ انتظاركِ يا رغدة ! بخير ماذا عنكِ؟ إشتقتُ إليكِ يا رغدة.

إحمر وجهُ الفتاة بعد سماعِها تلك العبارات .. لم يكن هنالك ايُّ مفر غيرُ البدء بالمراجعة..

يا ايتها النسوة ، هل يمكنكن التخفيف من تدرجات الأحمرار تلك؟

أعملوا معروفًا ..

رفقًا بهم ...

و استمر الإثنانُ على هذه الحال طيلة أيام الامتحانات.

رغدة تشعرُ بشيءٍ تجاهَه لكن هل هو بعمقٍ و قدَر ما يشعرُ به ؟ و لماذا تتجنبُ الحديثَ بهذا الموضوعِ معه ؟

هل تذكرون عندما قالت له «سنتحدث لاحقًا» يوم اعترافه لها بكلِّ شيء ؟ لم تتحدث معه ابدًا بذاك الموضوع ، و هو يخاف من رفضِها او فقدانِها.

هل لماضي رغدة سببٌ في منعِها من اطلاقِ عنان مشاعرِها ؟

لكلٍّ منكم فترةٌ كالمراهقةِ مثلاً.. يوضعُ فيها في اصعبِ المواقف و أحقرها و يخرجُ منها ببعض الكدماتِ و الجروح التي ستزولُ لا محالة ، لكن تبقى النُّدبأُت و الذكرى الى وقتٍ طويل .. ربما خاضت رغدة إحداها و هاي هي تخشى ان تتعرض لتلك الضرباتِ الموجعةِ مرةً أخرى ..

فالعقـلُ و القلـبُ يتناسـبانِ عكسـيًا في تلـك المرحلـة .. أمـا الآن فقـد تحولـت تلـك العلاقـةُ إلى طرديـة ، لا أحـدَ يـدري كيـف يحصـلُ هـذا و لكـن بعـد الخـروجِ مـن تلـكَ التجـارب يصبحُ الإنسـانُ أكـثرَ نضجًـا ..

لـو كان كلٌّ منكـم عـلى علاقـةٍ وطيـدةٍ و منفتحـةٍ مـع أبويـه ، و يتحـدث معهـما في كلِّ شيء ، لكانـت تلـك التجـاربُ شـبه معدومـة ، في حياتكـم بعـض طـرق أو تجـارب الحـب شر لا بـد منـه !.

مـرت أيـام الإمتحانـات يومًـا بعـد يـوم وصـولاً إلى آخـر أيامِهـا.. و هـذا هـو يـومُ الـوداع يـومُ التعاسـةِ و الحـزن بالنسـبةِ لكـمال.

قرر أن يتحدث معها ويرى سببَ تهرّبها..

بعـد خروجِـه مـن الإمتحـان وجدهـا تتحـدث مـع زميلاتهـا ، ذهـب و طلـب منهـا الحديـث عـلى انفـراد ، لبّـت رغـدة طلبـه و جلسـا في احـدى المقاعـد .. ثـم بـدأ بالـكلام :

- رغـدة ، سـئمت تجنّبـكِ الواضـح لمشـاعري ، قـولي لي ماخطبـي؟ لمـاذا هـذا الـبرود تجاهـي؟.

تفاجـأت رغـدة فكـمال كان جدّيًـا جـدًا و في حالـةٍ عصبيـة لم ترَهـا مـن قبـل .. لا توجـد أيَّ وسـيلة للهـرب فقـد حظـر تجـوالَ الحجـج ! ..

- كـمال .. سـأُخبرك بـكلِّ شيء لكـن اهـدأ اولًا ، نهضـت لجلـبِ قنينتـي مـاء .

اخبرتْـهُ بأنهـا ارتبطـتْ بإبـن جيرانهـا عندمـا كانـت لا تـرى سـوى اللـونِ

الـورديّ ، و كان الأخـير ذكـرًا بالغًـا ، و قـد اوجـعَ قلبهـا الـبريء و علّمهـا دروسًـا في الحـذر و الحيطـة لـن تنسـاها طـوالَ الحيـاة.

- إني اتفهـمُ كلَّ مـا عانيتِـه و مـررتِ بـه ، و لكـن مـا ذنبـي أنـا ؟ إننـي صـادقٌ يـا فتـاة ! ، سـأكونُ إلى جانبـكِ لآخـرِ رمـق.. احبـك يـا رغـدة احبـكِ .

و هنا لم تقوَ دموعُ جنديّنا على الصبرِ فنزلت كبركانٍ حارق.

صمتـتْ رغـدة لبرهـة ثـم طلبـت أن يخرجـا للمـشي حتـى بـابِ الجامعـة ، و في الطريـقِ وعدتـهُ بأنهـا سـتفكر ، و يـومَ مجيئهـم لإسـتلام النتائـج سـتخبره بالقـرار الحاسـم.

وصـلا الى نهايـة الحـرم ، عـادت هـي الى البيـت و هـو قصـدَ العمـل .. لقـد غـابَ طيلـة أيـام الإمتحانـات و هـا قـد انتهـت مـدة الأجـازة ...

ظـل كـمال طـوال سـاعات العمـل حتـى عودتِـه الى البيـت ، تنـاول العشـاء بـاردًا دون أن يسـخنه حتـى !

رمـى بجسـدِه عـلى الأريكـة ليريـح عضلاتـهِ المتعبـة .. و قلبـه هـل سـيرتاح ؟ آهٍ لـو كان العقـلُ كالجسـد يرتـاح بالخلـود الى النـوم ، او ربمـا بجلسـة تدليـك عـلى يـد خبـير آسـيويّ .. ليتـه!!

ظـلَّ يشـاهد التلفـاز و أخبـار البـلاد حتـى نـام ، و لم يشـعر إلا و البـاب تُـدقُّ و صـوتُ امـرأةٍ تنـادي :

- أين انت يا كمال ؟ إفتح البابَ بنيّ .

نهض مسرعًا و فتح البابَ و هو يفركُ بعينيهِ و يقول :

- خالتي العزيزة صباحُ الخير.. آسف تفضلي ..

كانت خالته أم حسام تزوره كل عدة أيام ، تطبخُ له بعضَ الأكلاتِ و تغسلُ الملابس ..

و بقيَ كمال وحيدًا - بعد رحيل خالته - في المنزل يفكر برغدة و يتخيّل وجهها في السقف و صوتُها يدورُ في رأسه و يلعبُ به كلاعب كرة قدم محترف حتى لمح ضوء الفجر الذي اوقفَ اللاعب عن الركلِ و المناولات .. قصد المطبخ ليأكلَ شيئًا و إذا بانفجار يهزّ البيت هزًّا ، و صوتُ الطائرات قريبٌ جدًا كأنها فوق المنزل تحوم الغرفة ، تعالت صرخات الجيران .. ظن انه يشاهد أحد افلام الرعب ...

ها قد بدأ الغزو ، كان المنظرُ مخيفًا جدًا ، و صياح النساء و بكاء الأطفال و رائحة البارود تلك اللعينة .. قفلَ كمال بابَ المنزلِ و راح يركضُ الى بيتِ خالته ، و لما رأتهُ خالته صارت تقبّله و تحتضنه و هي تبكي :

- الحمدُ للهِ يا بنيّ ، سوف نذهبُ الى أخوالكَ في الريف ، الوضعُ هناك آمنٌ و لا يوجد أيّ قصف .

لم يتفوه بأية كلمة .. و لكنه كان يفكر برغدة «أين هي الآن يا ترى؟» .. ذهب مسرعًا الى هاتف منزل خالته ، اتصل بها:

- آلو.. من معي ؟ تفضل ..

كان والد رغدة ، لكنّ كمال لم يسمع أصواتَ قصفٍ او ما شابه ،

إرتـاح قلبُـه و زفـر بشـدة ثـم أقفـل الخـطَّ مبـاشرةً.

لم تتجـاوز مـدةُ القصـف الــعشر دقائـق ، كانـت الصواريـخ تسـتهدفُ المبـاني الحكوميـةَ المجـاورة..

عنـد طلـوعِ الشـمس كانـت العاصمـةُ شـبه خاليـة و الطـرقُ الخارجيـة تعـجُّ بسـياراتِ الأهـالي الهاربـينَ إلى المـدنِ الشـمالية حيـثُ لا قصـف.

وصـل كـمال مـع بيـتِ خالتـهِ الى أخوالـهِ في الريـف ، رحّبـوا بهـم أجمـلَ ترحيـب و فرحـوا جـدًا لقدومِهـم و طلبـوا منهـم المكـوثَ حتـى هـدوءِ الأوضـاع.

مـضى أسـبوع .. كامـل لم يكـن عـلى سـجيته ، كان خجـولًا مـن بنـات أخوالـه وهـنّ كـثر ، و هـم لا يملكـون أيَّ ولـد بسـنِّه غـيرُ صغـار السـنّ ، فاسـتأذن طالبًـا الذهـاب الى صديقـهِ أحمـد في شـمالِ البـلاد.

رفـضَ كلٌّ مـن خالتـهِ و أخوالـه في البدايـة لكـن عـدم ارتياحـه الواضـح انقـذه ..

- عزيزي كمال لقد أوصتني أمُّك .. أرجوكَ انتبه لنفسك.

ثم احتضنته و بدأتْ بالبكاء.. قبّل كمال رأسَها و هو يقول:

- هوّني عليكِ خالتي ، سأكونُ بخير لا تقلقي .

نظـرت إليـه.. كانـت تتـأملُ و هـي تـرى ابـن أختهـا يرحـلُ وحيـدًا ، و لكـن هـي تعلـمُ بـأنَّ كـمال رجـلٌ راشـد و واعـي كفايـة..

- في أمان الله يا ولدي .. لا تنسَ أن تبعثَ بالرسائل لوالدتك.

أجابَ كمال :

- إن شاءَ اللهُ.. الى اللقاء.

و غادرَ متجهًا إلى الشمال.. كان صديقه أحمد يمتلك مزرعة في شمال البلاد ، ترعرعا سويًّا لكنّ أحمد تزوج ابنة عمه الذي كان تاجرًا كبيرًا ، فأصبحَ يديرُ املاكَ عمهِ و شركاتهِ و لم يكمل دراستَه و انتقل معهم ...

حالَ وصوله الى مزرعة أحمد رحّب به ترحيبًا حارًا و ظل يردّد «يا صديقَ العمر! أهلًا و سهلًا بكَ» ، ثم طلبَ منه الاستحمام و احضرَ له ثيابًا جديدة و تركه يخلُد الى النوم ليرتاحَ قليلاً من عناءِ السفر.

و في المساء ذهبَ كمال مع صديقه الى احدى المطاعم الشعبية ، و بعد عودتهم و تناول العشاء استرجعوا الذكريات و المواقف التي رحلتْ مع الماضي و لم يبقَ سوى أصحابِها جالسين سويًا.

و ها قد مر اسبوعان و كمال لا يزال يمكث عند صديقه ، ينهض باكرًا للتدريب على الفنون القتالية ، لقد أعجب جيران أحمد بمهارات كمال فطلبوا منه أن يعلّمهم بعضًا منها..

استحوذت الفكرة على إعجابه ، و في إحدى الليالي قال لصديقه :

- أحمد اريدُك أن تقرضَني مالاً كافيًا لأفتتحَ مدرسةً للفنون القتالية أقضي أوقاتَ فراغي بها و كذلك أجني بعضَ المال.

تعجب أحمد لما سمعه من كمال و قال :

- يـا صديقـي لا تفكـر بجنـي المـالِ أنـا معـك دومًـا و مـا أملـكُ هـو ملـكُكَ يـا صاحبـي ، لا تكـن رسـميًا معـي يـا ولـد .

خجِـل كـمال مـما سـمعَ فنظـر الى الارضِ و تلعثمـت الكلـمات و هـو يقـول :

- أعلـم ذلـك جيـدًا ، لكننـي اريـدُ أن أشـغل نفـسي ريثـما تسـتقر الأوضـاع.

تفهـم أحمـد مـا كان كـمال يريـدُه و وعـده بتقديـم الدعـم الكامـل لـه و مسـاندتَه في مشروعِـه هـذا.

اسـتمر الاثنـان في البحـث حتـى وجـدا مكانًـا مناسـبًا ، و قامـا ببعـضِ الإصلاحـات عليـه و افتتـح كـمال مدرسـته القتاليـة ، و بـدأ بقضـاء سـاعات يومـه هنـاك حتـى حقـق نجاحًـا باهـرًا و أصبـح مشـهورًا في المدينـة الشـمالية.

كان كـمال يرسـل الرسـائل و يسـتلمُها مـن أهلـه دائمًـا و يطمـئن عليهـم ، علِـم مـن والدتِـه أن منـى قـد أجـرت العمليـة و كانـت ناجحـة و الحمـدُ للـه .. و أنَّ ابـن صديقـة والدتِـه تقـدم لخطبتِهـا و وافقـتْ هـي و أمـه عـلى ذلـك لأنَّ العريـس جـراح مرمـوق و كان مـن احـد الأطبـاء الذيـن أجـروا العمليـةَ لمنـى.

إرتـاح كـمال لمـا علمـه مـن والدتـه ، و لكـن.. رغـدة مـاذا عنهـا؟ مـرت أشـهر و لم يسـمع أيَّ خـبرٍ عنهـا ، كان يتصـلُ يوميًـا و لكـن دون جـدوى

.. يبدو أن عائلتها قد سافرتْ و رحلتْ معهم .

في إحدى الأيام كان كمال يتسوق من إحدى المحلات المجاورة لقاعتهِ الرياضية و إذا بالبروفيسور يونس أحد التدريسيين في كليته ، راح يركض نحوه فرحًا ، تعانقا و تحدثا طويلًا ثم دعاه البرفيسور للعشاء في منزله ، لقد نزح إلى الشمال بسبب الحرب و استأجر دارًا قرب قاعة كمال الرياضية..

و في تلك الليلة سهر كمال مع الرجل الذي كان يسهرهُ بموادهِ العلمية ، أراد كمال معرفة نتيجته فطلب من أستاذ يونس ذلك و قام الأخير بإجراءِ بعض المكالماتِ و أخبره بنجاحه.

لم تكتمل الفرحة حتى معرفتنا بنتيجة رغدة ، تم إخبار البروفيسور بأن والدَها قد استلم نتيجتها و كانت قد نجحت هي أيضًا.

تناقشا و تحدثا في أمورِ البلاد.. أليسَ عجيبًا هذا ؟! إنها المرة الأولى التي يتحدثُ كمال مع أستاذه بأمور بعيدة كلَّ البعد عن الهندسة و العلم و فرضياته..

إنقضت السهرة ، شكر كمال أستاذه على حسن الضيافة و وعدهُ الأخير بأنه سيكون إلى جانبه مثلما كانَ يفعل في أمور الدراسة.

عاد كمال سيرًا على الأقدام و كانت المسافةُ إلى المزرعة طويلةً جدًا ، لكنه أراد ان يستنشقَ بعضَ الهواء المنعش و يذرف بعضَ الدموع

.. «أيـن أنـتِ يـا رغـدة ؟ إشـتقتُ إليـكِ يـا حبيبتـي.. لـن أنـسَ تلـكَ العيـون طالمـا حييـت». ظـل يتحـدث مـع نفسـه و يخاطبهـا حتـى وصـل إلى البيـت ، وجـد أحمـد منتظـرًا عنـد البـاب يدخـنُ السـجائر..

و لما رأى كمال أقبل يركض عليه :

- كمال ! الحمدُ لله لقد قلقتُ عليك ! أين كنتَ يا رجل؟.

كان كـمال متعبًـا و قـد أخـذ الشـوق و اللهفـة كلَّ طاقتـهِ التـي لم تأخذهـا المسـافةُ الطويلـة التـي سـارَها . أخـبر صديقـه بأنـه متعـب و يـودُّ الخلـودَ الى النـوم ، كانـت عينـاه محمـرّة و صوتُـه يبعـثُ الحـزنَ في قلـوبِ الطغـاة..

علـم أحمـد بـأن شـيئًا مـا قـد أحـزن كـمال هكـذا ، فأخـذ صديقَـه إلى غرفتـهِ و تمنـى لـه نومًـا هنيئًـا.

و في تلـك الليلـة لم ينـمْ كـمال رغـمَ الجهـد ، ظـل يفتـشُ عـن الذكريـات و يقلّبهـا واحـدةً تلـوَ الأخـرى ، بابًـا بابًـا ورقـةً ورقـة..

عطرُ رغدة ، دفءُ حديثِها ، حنانُ عينيها ...

هل سافرتْ و لم تعد ابدًا ؟ و هل الى لقائها من سبيل ؟!

طـوال فـترة هروبـه مـن القصـفِ و انتقالـه إلى المدينـةِ الشـمالية، لم تتوقـف معـاركُ عقلـه و قلبِـه ، لم يسـتطع و لـو لسـاعة أن يـدعَ رغـدة و شـأنها ، حتـى أثنـاء التدريـب كان تلامذتُـه يلاحظـون شرودَه .. كيـف هـذا ؟ ألا يجـب أن يتقـنَ معلـمُ الكونـغ فـو السـيطرةَ عـلى عواطفـهِ و افـكارِه !

إذا مـا أحـبَّ الإنسـان بجنـون لـن يقـفَ في وجهـه أيُّ شيء و سـتبقى نـارُ الحـبِّ و براكينُـه موقـدةً فيـهِ حتـى يشـاءَ اللـه.. لا عـذرٌ سـخيف و لا سـببٌ تافـه يمكنـه إيقـاف تلـكَ المشـاعر المقدسـة إن وُجِـدتْ ! لـذا كفـى تشـويهًا للحـبّ ، كفـى أرجوكـم.. لا تفتـوا فتـاوى باطلـةً مـن عندِكـم .. لا تذمـوا الظـروف إن كنتـم لا تملِكـون الشـجاعة ، إزرعـوا بـذوره في صغارِكـم ، لا تدَعـوا أذهانهـم تـشرد إلى المسلسـلاتِ و الخرافات بمجـرد سـماع كلمـة (حـب) ، قدسـوا أمهاتهـم قبلـوا أيديهـن صباحًـا و مسـاءًا ، عانقوهـن شـتاءًا و غنـوا لهـن ربيعًـا ، ارقصـوا معهـن تحـت مطـر الخريـف و قبلـوا جباههـن صيفًـا...

مضت سنة و ستة أشهر على هذا الحال .. نحف كمال و هزُل جسدُه من شدةِ التفكير ، اما الإشتياق فقد غير تفاصيل وجهه حتى بانت عظام فكيه ، إستقر أهله هناك و تحولوا للعيش مع زوج أخته منى في منزلٍ فخم.

مع بدء العام الدراسي إلتحق محمد الصغير في إحدى المدارس العربية هناك ، و حصلت أخته على وظيفة ملائمة في مختبر المستشفى التي يعملُ فيها زوجها ..

و في إحدى الأيام قصدَ كمال مكتب سفر في البلدة و اشترى تذكرة سفر ، نعم لقد فتحت المطارات و بدأت الرحلات تنطلق و كانت الأعلانات تملأ أرجاء البلد ، أرادَ رؤية اهله لعلَّ رؤيتهم تعوض الفراغَ الذي تركتهُ رغدة فيه و تعطيه شيئًا من الأملِ و القوة.

هل جربتم أن تفعلوا شيئًا دون الرجوع الى المنطق و العقل ؟

بمجرد ما شعرتم بذلك الشعور سارت اقدامكم نحوه و راحت ايديكم تلوح له !

هنالك صوت ما في داخل كل منكم لا تهملوه أرجوكم ...

أغلق كمال القاعة و أخبر أحمد و عائلته بسفره المفاجئ ، و شكرهم على حسن الضيافة و معروفهم الذي لن ينساهُ طوالَ حياته..

كانت هنالك بعض الحاجيات التي عليه ان يوضبها و اذا بتلاميذه يتوافدون واحدًا تلو الآخر ...

- معلمي ..

- ماذا تفعل الى أين يا معلم ...

- ارجوك يا اخي الكبير لماذا تضع حاجات في هذه الحقيبة ...

كانت أصواتهم موجعة مرصوعة بالحزن و التعلق !.. لم يقوى على مواجهتها فجلس وسطهم تاركًا كل شيء واضعًا يداه على وجهه و بدأ يبكي كالأطفال ..

هذه أول مرة يراه اللاعبون بهذه الحالة ! ، أعتادوا على صراخه المحفز و قساوته البناءة حتى ظنوا أنه لا يقهر.. لا يتألم ..

عانقوه جميعًا و أمتزجت الدموع ، أخذ نفسًا عميقًا و قال :

- يا صغاري سأذهب للقاء عائلتي أشتقت لهم كثيرا ..

مسح عيناه و أكمل . . .

- كونوا بخير لا تتوقفوا عن التدريب مهما حصل و لا تهملوا واجباتكم المدرسية ، سنلتقي يومًا ما و ستكون لنا مغامرات جديدة ...

يبدو أنهم قد أستسلموا للواقع الذي قد وضعه كمال !

و هل الواقع يوضع من قبلكم أنتم البشر ؟

نعـم ، أنتـم مـن تصنعونـه و تتقبلونـه لا أحـد غيركـم ، لم يسـبق أن كتبـت أقلامنـا افعـال لم تكـن لكـم فيهـا حيلـة ، أنـا لا اتحـدث عـن المشـيئة الآلهيـة ، الحجـة التـي لا تفـارق بعضكـم !

و مـاذا عـن الحـظ ! ، حرفـان اسـتحوذا عـلى قواكـم العظيمـة و قيداهـا شر تقييـد ! ...

في الصباح أوصله أحمد الى المطار ، تعانق الصديقان هناك و تبللتْ ياقات القمصان كأنه لقاؤهما الأخير ! قال أحمد:

- أرجوك انتبه لنفسِك .. إن احتَجتَني ستجدُني بإنتظارك يا صديق عمري .

- إن شاءَ الله ، لن أنسى فضلَكَ ، سأدعو لك بالخيرِ دومًا و سأبعثُ لكَ بالرسائل .. في أمان الله و حفظه يا حبيبي .

كانت الكلمات تخرجُ و تجرُّ الدموع معها حتى أختفى لمعانها شيئًا فشيئًا و صعد على متن الطائرة .

مضتْ ثلاث ساعات منذ الأقلاع و كمال جالس قربَ النافذة يتأمل الغيوم و يتمنى لو كانتْ روحهُ كإحداها تأخذها الرياح حيث رغدة ، قد يستغرب البعض في وقت تأخذ نظرة اللامبالاة على

الرجـال و السـيطرة ! ، أن الرجـال أعطـف و أحـن مـا يكـون و لكـن أختاروهـم بعنايـة فقـط ! ..

كما تتفحصون المرطب الملائم لبشرتكن!

لا تسـتعجلوا الأختيـار فهـذا لـن يتلـف البـشرة او يظهـر بعـض البثـور فيهـا ، بـل سـيدمر اجيـالًا و اجيـال ..

هـذا الرجـل لم ينـسى معشـوقته و لا للحظـة .. لا زالـت ترافقـه في كل تفاصيـل حياتـه ...

هـا قـد حطـت الطائـرة و بعـد إكـمال الإجـراءات وقـف كـمال أمـام بـاب المطـار ينظـر في وجـوه النـاس ، بـدت غريبـة لا يـرى فيهـا أيَّ صديـقٍ و لا قريـب .. نعـم إنهـا الغربـة التـي لا يعـرفُ الكثـير المعنـى الحقيقـيِّ لهـا !.

يـا ويـلاه ! كيـف سـيصمدُ هـذا الشـابُّ بعيـدًا عـن رغـدة و في وسـط الغربـة هـذه ؟

إسـتقل سـيارة أجـرةٍ و حسـبَ العنـوان الـذي يملكـه إتجـه كـمال نحـوَ أهلـه ، بعـد حـوالي الربـع سـاعة وصـل و رأى لافتـة مكتوبًـا عليهـا إسـمُ مالـك المنـزل الكبـير الـذي يقـفُ أمامـه (منـزل الدكتـور عبداللـه مـازن) ، حسـنًا ، هنـا تسـكنُ عائلتـه .. و لكـن كيـف يجـرؤ عـلى الدخـول و قـد بـدأت الدمـاءُ تتصلـب في شرايينـه و أنهـار العـرق تصـبُّ مـن عـلى جبينـه ؟! ظـل كـمال جامـدًا في مكانـه كأنَّ رجليـه صُبّـت بالإسـمنت المقـاوم حتـى مضـتْ عـدة دقائـق اسـتجمعَ فيهـا قوّتـه ، ثـم تقـدم نحـو جـرسِ المنـزل و إذا بولـد بشـوش الملامـح يُقبـل مسرعًـا و ينـادي :

- من الطارق ؟ تفضل .

قال كمال و هو يرمى بحقيبته ارضًا :

- هذا أنا يا محمد الصغير ، أخوك كمال! .

صاح محمد و هو يلقي بنفسه على صدر أخيه :

- أمّـــــيي ! كمال هنا أسرعي يا أماه ! .

بدأت المعركةُ هذا يقبّلُ و الآخر يحضن ..

أراد كـمال حمـلَ أخيـه عـلى رأسـه و الدخـول كالأيـام الخـوالي ، لكـنّ محمـدًا الصغـير قـد أصبـح طويـلاً و ثقيـلًا ، لا بـدَّ مـن تغيـير اللقـب..

أمسـك محمـد بكـمال و طـار بـه نحـو الداخـل حتـى أنـه لم يدعْـه يحـضر حقيبـةَ سـفره ..

هـل تعلمـون مـن أتـتْ مسرعـة و هـي تمسـكُ بحجابهـا تحـاول وضعـه عـلى رأسِـها مرتبكـة مرتعبـة مـن صيـاح محمـد و ندائـه إياهـا كالمجنـون ؟ عنـد دخـولِ الإثنـين نظـرتْ إلى الرجـلِ الـذي يجـره محمـد .. بـدا نحيفًـا جـدًا مهمـل الذقـن.

- أمي هذا أنا كمال!

و فـور سـكوت كـمال مشـت إليـه كمحـترفي المصارعـة دونَ أن توغزَهـا غضاريـفُ مفاصلِهـا المتآكلـة ، و مـن غـير أن توقفَهـا أوجـاعُ ظهرهـا .. مهـلًا .. لا شـكّ أن هـذا المصـارع قـد تنـاول المنشّـطات !! .. إحتضنتـه بـكل مـا أوتيـت مـن قـوة و عيناهـا تقـرّ فرحًـا :

- يـا حبيـب أمـكَ لقـد اشـتقتُ إليـكَ كثـيرًا .. مـا أعظمَهـا مـن مفاجـأة !! ..

نـزل البـارد مـن الدمـع حتـى تقرحـت العيـون فنهضـوا يمسـك بعضهـم البعـض و جلـس الثلاثـةُ و تحدثـوا كثـيرًا عـن الرحلـةِ و الأوضـاع في الوطـن حتـى بـانَ التعـبُ عـلى كـمال ..

بعد الإستحمام غطَّ في نومٍ عميق.

ماهـي إلا سـاعات حتـى عـادت منـى مـع زوجهـا و وجـدت أمهـا و محمـد في الصالـة مسـتيقظان و كانـت وجوههُـما تشـعُّ سـعادة ، قالـت بتعجـب :

- السـلامُ عليكـم ، أمـي ألم تأخـذوا قسـطًا مـن الراحـة ؟ إنهـا الثانيـة ظهـرًا .

ردت أمها :

- وعليكمُ السلام.. إذهبا إلى غرفةِ أخيكِ لتعلمي السبب.

فأخـذت منـى تركـض و تجـرّ زوجهـا معهـا لـترى مـا في الغرفـة ، و إذا بهـا تـرى رجـلًا نائمًـا و هـو يغطـي رأسـه.. خافـت منـى فرجعـت عـدة خطـوات ، طلبـت مـن يـاسر أن يحـرّك اللحـاف لـترى وجـهَ الرجـل. فعلهـا يـاسر و إذا بزوجتـه تـصرخُ:

- كماااااال !!

و أخـذت تقبـل أخاهـا و تشـمّه و تبـكي محتضنـة زنـده حتـى اسـتيقظَ فأخـذتْ دموعُـه تـواسي دمـوع أختِـه لتصنـع بحـرًا سـيُغرقُ المنـزلَ في

حـال اسـتمرارهِما.

اسـتمرتْ فـترةُ المناوشـات حتـى نفـاذ الذخـيرة فـكان لا بـد مـن وقـف الأطـلاق ، تعـرّف كـمال عـلى يـاسر و تحدثـا طويـلًا ، مـا أجملـه مـن منظـر !! العائلـة مجتمعـة و لأول مـرة لتنـاول الغـداء.

كانـت النظـرات و التسـاؤلات تهطِـل عليـه كقطـراتِ الغيـوم في الخريـف ، أجـاب كـمال عليهـا و تحـدثَ عـمّا حصـل معـهُ في العاصمـة و كيـف هـرب مـع بيـت خالتـهِ و مـن ثـم ذهابِـه للعيـش في المدينـة الشّـمالية بشـكل مختـصر أشـبعَ فيـه شـيئًا مـن فضولهـم.

بعـد الغـداء ، جـاءت منـى بإبنتهـا نـور لخالِهـا ، وضعهـا كـمال في حُجـره و أخـذ يقبّلهـا و يمسـحُ عـلى جبينِهـا الناعـم كالحريـر.

مـرت عـدةُ أيـام كان كـمال لا يخـرج مـن غرفتـهِ إلا لتنـاول الطعـامِ و مـن ثـم يرجـع إليهـا ليقـرأ بعـضَ الكتـب التـي اسـتعارها مـن يـاسر حتـى انتهـاء أول شـهر ، حيـثُ اسـتيقظ باكـرًا و قصـد غرفـةَ والدتـهِ للتحـدث معهـا ، بعـد اسـتئذانها و دخـول الغرفـة قـال كـمال :

- صبـاحُ الخـير أمـي ، أودّ الحديـث معـكِ بخصـوص الإنتقـال للسـكن بمفردنـا ، لقـد أثقلنـا عـلى يـاسر كـما أني لا احبّـذ وجـودي هنـا مـع أختـي وزوجِهـا إنهـما لا يتمتّعـان بـأدنى خصوصيـة .

أم كمال :

- عزيـزي إنـك محـقّ ، و لكنهـما طلبـا منـا المكـوث ، و إن غيّرنـا مـكانَ سـكَنِنا فمـن أيـن سـنأتي بالإيجـار؟ أنـا لا أملـكُ وظيفـة هنـا

و أنــت لم تتخــرجْ بعــد ! .

- سـأفتشُ عـن عمـل بشـهادةِ الإعداديـة التـي معـي و فـورَ حصـولي عليـه سـنخرجُ ، أرجـوكِ يـا أمـي .

- كما تشاءُ يا حبيبي .

تحـدثَ كـمال مـع نسـيبه ، يـاسر رجـلٌ كريـمٌ طيّـبُ القلـب لم يرحـب بفكـرة انتقالهِـم و لكـنّ كـمال كان عازمًـا عـلى ذلـكَ و لا يمكـن أن يتراجع ، بحثـا عـن وظيفـة لكـمال حتـى وجـدا في إحـدى الـشركات السـياحية .

و بعـد مـدة مـن عملِـه و بحـث طويـل أيضًـا وجـدوا شـقة صغـيرة في الشـارع المقابـل لمنـزل يـاسر.

إنشـغل كـمال كثـيرًا في العمـل ، كان يخـرُج باكـرًا و يعـود مسـاءًا.. شـيئًا فشـيئًا أثّـثَ الشـقةَ و أصبحـتْ مع صغرِهـا منـزلاً دافئًـا تسـودُه الطمأنينـة.

كان أملـه متجـدد و لا يمـل و لا يـكل مـن تخيلاتـه و افـكاره المتمحـورة حولهـا !

كلُّ هـذه الأيـام و المشـاغل و الظـروف لم تسـتطعْ أن تحـرف مسـارَ حبـه و هيامـه المتجـه صـوبَ رغـدة .. كـثُرت أحلامـهُ بهـا ، كان يـصرخ و يسـتغيثُ مناديًـا باسـمِها حتـى علِمـتْ أمُّـه بـأن ابنهـا عالـق في غـرام فتـاة إسـمُها معلـوم ، و لكـن وقـتُ حصـول ذلـكَ مجهـول .. و هـي تعـرفُ ابَنهـا و طبعَـه الخجـولَ فتركتـهُ حتـى يخبَرهـا هـو بـكلِّ شيء.

بـدأت أحوالهُـم الماليـة بالتحسّـن رويـدًا رويـدًا ، اشـترى كـمال سـيارة و كيـس ملاكمـة يُفـرّغ فيـه ألمَ الغربـة و شـدةَ شـوقِه اللامحـدود !...

عليكـم بذلـك الأمـر ، أفرغـوا مـا في داخلكـم بالدمـوع بالـصراخ بـأي شيء لـكي لا يجعلكـم ألغامًـا و قنابـل تنفجـرون عـلى مـن لا يسـتحق ذلـك !...

تعـرف كـمال عـلى عـدد مـن الأصدقـاء العـرب في العمـل ، مـن بينهـم رجـلٌ خلـوق حلـوُ المعـشر اسـمه فـراس ، أصبحـت علاقتُهـما وطيـدة جـدًا . في إحـدى نهايـات الأسـبوع أخـبر فـراس كـمالَ أنـه و والدتَـه وأختـه يرغبـونَ في زيـارة منـزل كـمال والتعـرفِ عليهـم.

كانـتْ آخـر أيـام شـهر شـعبان ، زار فـراس و عائلتُـه منـزل كـمال لتنـاولِ العشـاء معهـم و بـدْأ مشـوار عَلاقـة تفـوحُ منهـا رائحـة الوطـن و اللحمة لعلّهـا تطغـى عـلى رائحـةِ الغربـة السـائدة ..

تبادلـوا الأحاديـث و أخـذوا يسـتذكرون المواقـف التـي مـرّوا بهـا هنـاك و الذكريـات الجميلـة ، بـدا أنّ الوالدتـين قـد انسـجمتا كثـيرًا و كذلـك منـى و أخـت فـراس ، عـدا محمـدًا الـذي جلـسَ يسـتمعُ لكـمال و صديقـه و لا يفهـمُ سـوى بعـض المصطلحـات التـي يسـتخدمونَها في العمـل .

مسـكين محمـد ، لقـد عـانى الكثـير و هـو لا يـزال في مقتبـل العمـر ، كلا ليـس مسـكينًا هـذا مـا سيشـكله و يصلبـه ، كالحديـد عندمـا تعرضونـه لظـروف قاسـية مـن حـرارة و طـرق مسـتمر يصبـح يفـرض هيبتـه !..

تقربت العائلتان من بعضِهما كثيرًا و استمرت الزيارات و النزهات المشتركة و التي خففت بدورِها من الهموم و الحنين.

زارهُم في الغربة لأول مرة شهرُ (رمضان) ، كان كمال و فراس و محمد الصغير الذي بدأ ينسجم هو الآخر معهما كأنه قد حصلت له طفرة عمرية و فكرية لكثرة جلوسِه و استماعِه لحديث الكبارِ و مخطّطاتهِم ..

و كذلك النساء كنّ يذهبن لإحياء ليالي هذا الشهر المبارك في الجوامِع المُجاورة ، و في إحدى المرات لمحتْ أم فراس إحدى صديقاتها عند خروجهنّ من المسجدِ فنادتها :

- أم رغدة ! يا أم رغدة تمهّلي .

ماذا ؟ أم رغدة ؟ هل تعني أم رغدة التي نعرفها أم أنه مجرد تشابهُ أسماء ؟ يا إلهي ليتَها رغدة كمال ! ما أجمل الأيام القادمة إن كانتْ هيَ.

- عزيزتي أمُّ فراس ! آسفة لقد كنّا خارجتَين ، كيف حالكِ؟ لقد اشتقتُ لكِ كثيرًا .

كان هذا ردَّ أمِّ رغدة ...

تبادلتا الحديثَ باختصار و من ثمّ رحلتا بعد أنْ تعرّفتا على أم كمال.

نعمْ لقد كانت رغدة بدمِها و شحمِها ، الكل يقول إن الدنيا صغيرةٌ و لكن لا أحدَ يعي معنى ذلكَ إلا عندما يلامسُ هذا

المعنـى في حياتِـه اليوميـة.

كانـتْ أم كـمال في حالـة صدمـة و اندهـاش ، لقـد سـمعتْ إسـم هـذه الفتـاة يخـرجُ مـن فـم ابنهـا النائـم و هـو يسـتنجد ، و لقـد وضحَـت الأمـور كلُّهـا بعدمـا علمـتْ مـن أم فـراس أنهـا طالبـة في كليـة الهندسـة التـي كان يرتادُهـا..

بـدا الحـزنُ واضحًـا عـلى أمِّ كـمال و تغـيرتْ تقاسـيم وجهِهـا ، و صـارت الدمـوع تنـزل مـن عينيهـا ببـطءٍ شـديد ، ظنـتْ أم فـراس أنهـا كانـت تبـكي عـلى ولدهـا كـمال المشـابه حالُـه لحـالِ رغـدة التـي لم تكمـل الدراسـة بسـبب انـدلاع الحـرب ، و لكـنَّ الـسرَّ كان في أحـد أصابـع يـد رغـدة ..

نعم لقد حزرتُم : رغدة كانت تلبسُ خاتم خطوبة !

كيفَ و متى ؟ و ماذا عن كمال ؟

كانـتْ أم كـمال تبـكي لمشـاعره التـي سـتحرق قلبَـه الـذي سـينكسر رغـمًا عنـه ، هـذا عـدا موجـة الحـزن التـي سـتجتاحُه.

عنـد عودتهـا إلى المنـزل لاحـظَ الجميـع شرودَهـا و حزنَهـا ، حتـى إنهـا لم تتحـدث مـع أي أحـد ، خلـدت الى النـوم و لم تتنـاول السـحور معهـم بـل اكتفـت بـشرب المـاء.

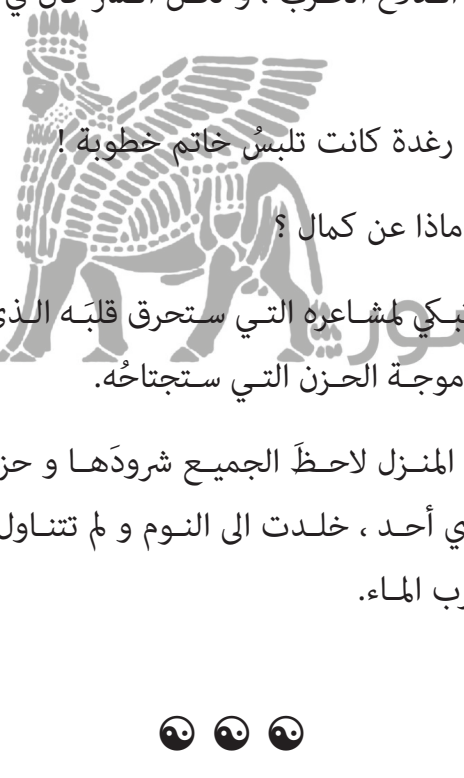

بقيت أم كمال على هذه الحال عدة أيام ، و على الرّغم من إلحاح أولادها لمعرفة سبب تعاستِها لم تفصح عن أيِّ سببٍ مقنع ، كانت تتجنبُ الحديث و تتعذّرُ بالمرض .

في إحدى الليالي كان كمال يتهيأ للخروج ، طرقتْ امُّه بابَ غرفته قالت :

- كمال ، اودُّ التحدثَ معكَ يا بني .

قال مستغربًا :

- أمي دعي الحديث بعد عودتي ؛ إني ذاهبٌ الآن .

- لا يُمكنني أن أؤجّل هذا الحديث يا عزيزي ، كما أنّه لن يطول .

و كانت تملأ نظراتِها الجدية و الرجاء.

لبى كمال طلب والدتهِ و جلسا للتحدث ، طلبت أمه منه ان يتزوج و أخبرته برغبتِها في أن ترى احفادَها و أنّها تعبة و حزينة لأنّ جميع من في سنِّها يلاعبونَ أحفادَهم ، و أنّ العروس أخت فراس (مريم) و التي هي في غاية الجمال و الأخلاق و لا ينقصُها شيء ! لكنّ كمال رفضَ هذا الطلبَ بقوله :

- أمي سأتصلُ بمنى لتأتي بنور كي تقضي معها بعض الوقت ، أنا لا افكر في الزواجِ حاليًا ارجوكِ أن تفهميني .

أرادتْ أن تنقذَ ابنَها من القادم المؤلم ، هذا هو قلبُ الأُم ..

ليستْ كلُّ من أنجبتْ طفلاً صارتْ أمًّا ...

الأمُّ معنًى مقدس لا يعرفُ معناه و لا يمكن أن يجازيه أحد إلا الله الذي وضعَ الجنةَ تحت أقدامِها ، فهو الخالقُ و هو الشاهدُ و العليمُ بكلِّ شيء .

لم تستسلم أم كمال ، حاولتْ عدةَ مرات أخرى حتى إنها طلبتْ من منى ان تتحدث معهُ أيضًا ، لكن دون جدوى ..

مع قدوم عيد الفطر ، قررت شركة كمال و التي كان أغلبُ موظفيها من بلادِ العرب ان تنظّم سفرةً سياحية لهم ، قام بتحضير حقيبة سفره و طلب من أمّه كيَّ بعض قمصانِه ، ستنطلقُ الرحلةُ في اليوم الثاني من أيام العيد و لمدة أسبوع كمال ، سألَ والدتهُ ان تمكث عند منى و ياسر حتى يعودَ لأنه سيأخذُ أخاه محمد معه.

و انطلقوا في الموعد ، كانت وجهتهُم إحدى الجزُر الإستوائية تعرّف خلالها كمال على شاب اسمهُ يونس زميلهم في الشركة و كذلك صديق فراس.. كان قد لمحهُ من قبل عدةَ مرات لكنّه لم يكنْ قد تقرّب منه على هذا النّحو ، بقي الأربعةُ سويًّا خلال الرحلة يتناولون الطعام و يتبادلون المزاح و يخرجون للتبضع معًا.

قضوا وقتًا ممتعًا حتى أحترقت بشرتهم من كثرة نزولِهم للسباحة في البحر ، اعتادَ كمال و يونس يوميًا أنْ يقصدا حجرة الهاتف التي تقع في آخر الشارع الذي يحوي نزُلهم ليتّصلَ كمال بوالدتِه و يطمئنّ عليها و يونس بخطيبته ليتحدّث معها و يطّلع على أحوالِها و تفاصيل يومِها الدقيقة ، و محمد وفراس نائمان حتى الظهر ...

كانت محطة ممتعة أفرغت بعض الهموم و كسرت الروتين الذي

قـد يقتـل أحدكـم يومـا !...

إنتهـت الرحلـة و أيامهـا التـي لا تُنـسى ، و في طريـق العـودة إتفـق الثلاثـة عـلى أن يعـاوِدوا لقاءاتِهـم في أماكـن مختلفـة و كذلـك أن يحضروا معهـم عائلاتِهـم لقضـاءِ بعـض الوقـت الممتـع.

و بعدمـا عـادوا سردوا تفاصيـل رحلتِهـم الممتعـةِ لأهلهـم و أحبائهـم، و وعدوهـم بسـفرة سـياحية في الأيـام القادمـة ، فبـدأ الـكلُّ بالتحضـير و في نهايـة الأسـبوعِ و قـدوم إحـدى العُطـل القوميـة في البـلاد قـرروا الإنطـلاق في اليـوم التـالي مبكـرًا.

إصطحبَ الثلاثة عائلاتِهم و جاءت خطيبة يونس أيضًا !

إلهـي أعنّـي عـلى وصـف هـذا الموقـف المـؤلم .. كـم أودُّ أن اهـربَ و أتـرك هـذا الجـزء دون ذِكـر و لكـن لا بـدّ منـه كـما هـي الحيـاة.

بعـض المواقـف التـي عشـناها نـودُّ أن تختفـي مـن شريـط ذاكرتنـا إلى الأبـد و لـو كلّفنـا ذلـكَ فقـدان الذاكـرة ، و مـا أعجـب صبرنـا و تحمّلنـا في وقتِهـا ! أنّ هـذه إشـارة تفـاؤلٍ و أمـل في حـد ذاتهـا ، إذ طالمـا أننـا قـد اجتزناهـا بعينِهـا فـإذن يمكنُنـا تـرك و عبـور أطلالِهـا أيضًـا و لكـن ببعـضٍ مـن الصـبر و التجاهـل المصطنـع حتـى نعتـاد عـلى ذلـك ، ثـمّ يصبـحُ أمرُنـا شـبهَ منـسيّ .. و اكـرّرُ: شـبه!

سارتْ سيارةُ فراس في المقدمة و خلفها سيارةُ كمال ، كان يونس متأخرًا بعضَ الشيء لأنه توقف لتعبئة الوقود ، و ذلك من نعم القدر على كمال و من معهُ في السيارة - و ستعلمون ما أعنيه لاحقًا - حتى وصلوا الفندق المقصود أمام الشاطئ ، نزل الجميع مع أغراضِهم و صعدوا لنَيل قسطٍ من الراحةِ لأنها ستكونُ ليلة شواء مشوّقة و نقية على الشاطئ حيث أمواج البحر الجامحة.

وصلَ يونس بعدهُم بحوالي نصف ساعة ، إستأجر الثلاثة مسبقًا طابقًا كاملًا يحوي أربعَ شقق ليتمتّعوا ببعض الخصوصية فقصد يونس شقته مع عائلته و خطيبته.

و بعد انسحاب الشمس و مجيء القمر نزلَ الجميع ، تفترِشُ النساء الأرض و يقطّعنَ الخضار ، و الأطفال يشاهدون كمال و هو يكسّرُ الحطب بمهارة الساموراي ! و محمد ذاهب لجلب بعض الفواكهِ و الحاجيات اللازمة ، و هناك قدِم يونس مع عائلتِه .. يا إلهي ألقى التحية و لكنّها بدتْ كالقنبلة التي أُلقيتْ على هيروشيما !

رمتْ أم كمال ما في يدِها أرضًا و وضعت يدَها على فمِها ، كمال بقيَ جامدًا في مكانه ينظرُ في عينَيها و من ثم أطلقَ صيحة جعلتْ جميع الأطفال الذين كان يضحكهم و يفرحهم بحركاتِه و مهاراتِه يُجهشونَ في البكاء ، و من ثم رفسَ النارَ التي أضرمَها للشواء فتطاير كلُّ ما فيها من جمر نحو السماء .. و أخذَ يركض نحو السيارة و اختَفى معها وسطَ الغبار.

اقشعرت أبدانُ الجميع لما حصل و لكن ما كانَ هذا ؟ ولمَ ؟ و كمال

مـاذا بـه ؟ لمـاذا هـذا الجنـون ؟ لم يحـدث مسـبقًا أن اجتاحتـه نوبـةُ غضـب كهـذه ..

و بينما الجميع صامت تداركتْ أمُّ كمال الموقف و قالت :

- لا بـأس .. يبـدو أنـه قـد ضجِـر مـن طـول انتظـاره إيّاكـم ، هيـا لنُكمـل سـوف أُشـعل نـارًا أخـرى و سـيأتي بعـدَ قليل .

ظـل يونـس يرمـي بنظراتِـه نحـو خطيبتِـه و يحـاول معرفـة سـبب جنـون كـمال ، و لـولا مجـيء محمـد لعـادَ معهـا للتحقيـقِ في ذلـك.

جاء محمد بشوشًا يحملُ الأكياسَ و يقول :

- تعالـوا يـا أولاد ، لقـد تعـبَ كتفـي ! سـوف يتمـزق وجعًـا ، سـاعدوني هيـا .

و إذا بالأطفـال لا يحرّكـونَ سـاكنًا ، خائفـين مرعوبـين ، حتـى شـعرَ بـأن شـيئًا مـا قـد حصـل فقـال :

- ماذا هنالك ؟ و أينَ كمال ؟ ما لي لا أراه يشوي اللحم ؟.

فأجابت منى :

- جـاء عصبيًـا و أسرعَ نحـو السـيارة يقودُهـا كالمجنـون ، وقـد اتصلـت عـلى هاتفـهِ المحمـول و هـو لا يـردّ! .

اسـتغرب محمـد مـما سـمع ، قصـد حجـرة الهاتـف و اتصـلَ بالفنـدق عـدة مـرات ، أخـبروه بأنهـم لم يشـاهدوا كـمال هنالـك ، فقـال :

- سيأتي ، ربما نسيَ شيئًا ما ، هيا فلنكمِل العشاءَ فقد جعنا كثيرًا .

و عـاد الوضـع طبيعيًـا بعـد تنـاول العشـاء و بـدا الجميـع في حالـة اسـترخاء مـا عـدا أمُّ كـمال و رغـدة و يونـس الـذي أخـذه محمـد للسـباحة تحـت ضـوء القمـر.

ماذا هل قلت رغدة ؟ نعم رغدة !

تعالوا معي أخبركُم بالأسرار الدفينة ..

يونـس كان أحـد أقربـاء رغـدة مـن طـرفِ والدِهـا ، و فـور انـدلاع الحـرب و سـفرِهم التقـوا بـه ، و بعـد أشـهر قليلـة تقـدم يونـس لخطبـة رغـدة و تقـرّر أن يتزوجـا بعـد أن يجهـز عـشّ زواجهـم و يقومـوا بإكـمال النقوصـات.

سـأنقلكم الآن إلى مـلاك رغـدة ليـسرد لكـم مـا حصـل و يُطلِعكُـم عـلى كلِّ شيء ...

مـاذا أقـول و أيُّ لغـة تسـتطيع وصـف الشـعور الـذي ينتـاب هـذه الفتـاة ؟ لـو اجتمعـت لغـات العـالم مـا اسـتطاعتْ أن توصـلَ مـا في قلبِهـا مـن حـزن و خيبـة ! أرجوكـم لا تقولـوا إنهـا أنانيـة أو خائنـة فـكلُّ شيءٍ حصـلَ معهـا كان مبهـمًا بعـدَ خوضِهـا تلـك التجربـة الفاشـلة و التـي سـلبتْ منهـا الثقـة و أصبحـتْ لا تؤمـن بالحـب

الصـادق و جعلتهـا تميـل إلى العقـل تاركـةً قلبَهـا و مغلِقـةً بابـه.

أحبّـتْ كـمال نعـم ، أحبّتـهُ جـدًا ، و لمـا علمـتْ بهيامِـه بهـا خافـتْ تكـرار تجربتِهـا المريـرة عـلى الرغـم مـن صراحتـه معهـا و نقـاء حبـه ، لكنهـا أرادتْ التريـث و التفكـير مـرارًا و تكـرارًا حتـى بـدءِ العـام الـدراسيّ القـادم ، لكـنّ الحـرب سـبقتْ كلَّ شيء و قطعـت الوصـل بينهُـما . بعـد سـفرها و انقطـاع الأخبـار ظنـتْ رغـدة أنَّ مكروهًـا قـد أصـابَ كـمال خصوصًـا عندَمـا وصلتهـا أنبـاء قصـف المبنـى الحكومـيّ في حـيِّ كـمال.

أمضـتْ شـهرًا كامـلًا تـزور المشـفى بعـد فقدانِهـا الشـهية و إصابتهـا بحالـة ضعـف جعلـتْ منهـا عرضـة لـكلِّ الأمـراض ، سـهرت و بكـت و نـادتْ بإسـم كـمال حتـى تعبـت و لكـن مـا في اليـدِ مـن حيلـة..

دعـوني أخبركـم بـشيء مـا، حتـى كـمال لم يكـن عـلى علـم بـه ، هكـذا أنتـم لابـد لكـم أن تخفـوا شـيئًا ، والـد رغـدة كان سـكيرًا ، يـسرف في تنـاول الخمـر حتّـى يفقـد سـيطرته عـلى نفسـهِ و يقـومُ بضربهـنّ و قلـب المنـزل فـوق رؤوسـهن أعنـي رغـدة و أمّهـا و أختهـا عـذراء ، كان مدمنًـا منـذ طفولـة رغـدة و كان يُـسيء معاملتَهـا حتـى أنهـا لم تحـظَ بطفولـة ناعمـة كبقيـة الأطفـال.

لكـن مـع مـرور الوقـت و حصولِـه عـلى الشـهادة العليـا تغـيّر تدريجيًّـا حتـى تركهُـم للبـلاد و تـرك مهنتـه و مختبراتِـه ، أصابتـه هنـاك حالـة تعاسـة فعـادَ إلى المربـعِ القديـم.

إنّ الإنسـانَ مـا لم يتعلّـم مـن ماضيـه ليفـوزَ بحـاضرِه و مسـتقبلهِ القـادم أمـسى إنسـانًا فاشـلاً لا فـرقَ بينـه و بـينَ الـلاشيء ...

هـذه هـيَ الحقيقـة ، إنّنـا نعيـش عـدة اختبـارات و مواقـفَ لنتعلّـمَ منهـا و لنتجنّبهـا في الآتي ، و عـدمُ تكـرّر الغلـط و العـزوف عنـه إحـدى علامـات النضـج و التطـور ...

لم تجـد رغـدة أي سـبيل للهـروب من معاملة والدها القاسـية و الوحشـية سـوى الـزواج ، و كان شرطُهـا أن تعيـش في منـزل لوحدهـا تحتضـنُ فيـه عـذراء و أمهـا و تـدعُ أباهـا يحتضـن زجاجاتـهِ و سـجائره المشـؤومة.

السـؤال الآن ... هـل نسـيتْ كـمال ؟ هـل مـاتَ حبُّـه معـه كـما ظنـت؟ لا وحقِّكـم لم تنـسى و لكنّهـا وضعتـهُ في قبـوٍ مظلـم و قـررت عـدمَ النـزول إليـه احترامًـا و وفـاءًا لخطيبهـا..

وكـم مـن أنثـى فعلـتْ ذلـك ، كـم مـن فتـاة جميلـة تفـوحُ منهـا رائحـة الـورد أُجـبرتْ عـلى الـزواج مـن شـخص لا تنجـذبُ إليـه حتـى ، أو لعـلَّ ظروفًـا أجبرتهـا عـلى ذلـك فقُتـلَ الحـبُّ في قلبهـنّ أو أنزلنـهُ في قبـوِ الذكريـات.

و نـادرًا مـا تمتلـكُ إحداهـنّ الشـجاعةَ الكافيـة لمواجهـة الأهـل و الظـروف ، فنحـن مجتمـعٌ يـربي الصبيـانَ عـلى أنّ الأنثـى ضعيفـة و لا يمكـنُ السـماحَ لهـا بأخـذِ حقهـا الكامـل ، و كـم مـن أخٍ صغـير أُعطـيَ الحـقّ بالتسـلطِ عـلى أختـهِ الكبـيرة و التحكـمِ بجميـع أمورِهـا.

راجعوا أنفسَكم أرجوكُم .. كفى اضطهادًا .. كفى ظلمًا ..

الأنثـى شـوكولا -بيضـاءًا كانـت أم سـمراءَ - تتطلـبُ درجـة حـرارة معيّنـة و ظروفًـا خاصـة و عُلبًـا مميّـزة ، أرجـوكَ لا تمـلأ قلبهـا قهـرًا حتـى تذيبَـه و لا تهملهـا إلى الحـدِّ الـذي يجعلهـا تتحـول!.

كـن لهـا أبًـا صالحًـا أو أخًـا رحيـمًا أو صديقًـا صدوقًـا ، أمـا إذا كنـتَ حبيبًـا و زوجًـا فأجمـع كلَّ هـذه الصفـاتِ يـا رجـل.

عندمـا جـاءتْ تتمـشى و يونـس يمسـكُ بيدِهـا بـكلِّ عطـف و حنـان ، وقعـتْ عينـا كـمال عليهـا ميّـزَ تلـك العيـون عـلى الرغـم مـن الظـلام الحالـك ، سـيطر عليـه الغضـب ، لم يتمالـك نفسـه ، لم تسـعفه تمارين السـيطرة و التحكـم تلـك و مـن دون تفكـير أرادَ فقـط الهـروب مـن قسـاوة هـذا المنظـر ، و هـي التـي عرفتـه منـذ اللحظـة التـي أخبرهـا يونـس بتعرّفـه عـلى صديـق جديـد ، طيّـب القلـب و شـهم و متواضـع ، و كلّ الصفـات التـي عرفَتْهـا قبلـه بـل حتـى أكـثرَ منـه.

و لهـذا لمْ تُـرد إن تذهـب معهـم ، أتعلمـون لمـاذا تأخـر يونـس عـن القافلـة ؟ كان في منـزل رغـدة يحـاول إقناعهـا أن تـأتي معهـم بعـد رفضِها الفكـرة هاتفيًـا حتـى تعبـتْ مـن كـثرة إلحاحـه فخضعـتْ لرغبتـه.

تمنـت أن يتوقـف قلبُهـا عـلى أن تـراه يشـاهد كـمال في هـذه الحالـة الهسـتيرية .. بـل لـو أنهـا اختفـت مـع الغبـار المتناثـر الـذي ملأ المـكان.

و كيـف لهـا أن تخـبر يونـس بالحقيقـة ؟ فقـد رأى كـمال و هـو يلمَـح رغـدة فيشـور ، لابـدّ أنـه أحـسّ بـشيءٍ مـا ، و أمّ كـمال التـي كانـت نظراتُهـا كالسِّـهام الحـادة تخـترق رغـدة واحـدًا تلـو الآخـر.

إنقضت السهرة و عاد الجميع إلى النُّزل.

و في الثانية صباحًا أيقظ رغدة صوت محمد و هو ينادي :

- يونس أين أنت ؟ إنهض ، كمال في المشفى! .

نهضَ يونس هلعًا يهرول نحو الباب فوقعتْ عينُه على جبين محمد المتعرّق و الذي خاطبه كالمجنون :

- يونس ! إلبس ملابسَك كمال في خطر هيا بنا ؟.

كان النعاس يغلب على يونس و لكنّه فور سماعِه صيحات محمد ركضَ لإحضار مفاتيح سيارتِه و نزلا نحو السيارة.

لقد صدم كمال سيارته بإحدى عواميد الكهرباء الموجودة على جانب الطريق البرّي ، أخذه أحد سائقي الشاحنات إلى المستوصف الطّبي الذي يقع قرب النُّزل ، و من ثم اتصلَ بالفندق القريب لمكان الحادث لإخبارِهم.

لحسن الحظ أنَّ عائلة كمال كانوا لا يزالون نائمين.

فور وصول محمد و يونس و مشاهدتِهم لكمال ممدًا على السرير معصوبَ الرأس و قدماه حافيتان و أثر الجمرِ عليهما ما يزال حديثًا ، تحدثا مع الطبيب الخفر ، أخبرهم بأنه طلبَ سيارة إسعاف و سوف تصل بعد دقائق و أنه لا داعي للقلق عليه ما دامتْ أجهزتُه الحيوية سليمة حتى الآن ، لكنه قد يعاني ارتجاجًا دماغيًا من قوة الإصطدام و بعض الجروح الناجمة من زجاج السيارة المتناثر.

بقي محمد مع كمال في مشفى المدينة العام ، و عاد يونس إلى النزُل ليخبرَهم بكلّ شيء ، فقرّر الجميع الرجوع الى المدينة ؛ ركبتْ عائلةُ

كمال مع مريم و أم فراس في سيارة محمد ، و في الطريق رأوا حادثَ سيارة كمال على جانب الطريق و زجاجَها المتناثر.

طلبتْ أمُّ كمال من مريم التوقف لإلقاء نظرة عن كثب ، و نزلت من السيارة و راحت تُمعن النظر في سيارة ابنها و بدأتْ دموعهن بالانهمار و اللمعان تحت أشعة الشمس ، فجاءَ صوتُ يونس من خلفِها :

- يا خالة كفى ، إنه على ما يرام .. أرجوكِ لنذهب لرؤيتِه دون تأخير .

و انطلقوا مجددًا دون توقّف حتى وصلوا إلى المشفى ، نزل الجميع لرؤية كمال إلا رغدة بقيتْ في السيارة و لم تكتمْ دموعَها بل أطلقت العنان لتلك القطيرات المالحة ، ثم عادوا بإستثناء أمه التي بقيتْ معه ، و في الليل جاءت منى مع ياسر و طلبت من أمها أن تذهب الآن مع ياسر و تأتي في الصباح.

كمال كان في غيبوبة ، مرّ يومان و كمال على نفسِ الحال و أهله يتناوبون على المكوث معه ، زارَه جميع الأحبة و الأصدقاء عدا رغدة.

لم يفق إلا بعد خمسة أيام ، مُنح إجازة مفتوحة حتى يستعيد عافيته .. و أيُّ عافيةٍ هذه؟

لقد عادت إليه ذاكرتُه ، و هنا انكشفتْ له الأسرار .. كانتْ رغدة هي من تجعل يونس يتراقص فرحًا عند الإتصال ، حبُّها الذي يدفع يونس ليعمل أوقات إضافية دونَ تعب ! و الوشم الذي يحملُ أولَ

حـروفِ اسـمها .. كان يظنّهـا ريـم ، رحمـة ، رؤيـا .. ررر كلَّ الأسـامي مـا خَـلا رغدتـه !

توقّعـوا كلَّ شيءٍ ، كلَّ الإحتـمالات ، كلَّ المواقـف و اسـتعدّوا لهـا ، فقـد تندمـون يومًـا لعـدم تفكيركُـم أو توقّعِكـم إحداهـا.

يـا إلهـي كلُّ هـذا مـن أجـل الحـب ! و حـب مَـن ؟ رغـدة ! و لكـنّ كـمال يحبهـا أكـثر ! كيـفَ يمكـن هـذا ؟

هل انتهت الحرب ؟ هل سيستسلم ؟ أيتركُ بندقيّته و يركضُ مدبرًا؟

في إحـدى الليـالي كانـتْ رغـدة مسـتلقية في غرفتهـا ، فنزلـتْ إلى قبـوِ الذكريـات و أخـذت تنفُـض الغبـارَ عنهـنّ . و في اليـوم التـالي اتصلـت بيونـس و أخبرتْـه أنهـا تـودُّ الخـروجَ معـه للتّحـدث ، و بعـد مغيـبِ الشـمس جـاء يونـس لإصطحابهـا ، قصَـدا مطعـمًا مرموقًـا.

لم يُـزح يونـس بنظـرهِ عنهـا ، و رغـدةُ كمصبـاح يمـرّ بـه تيـار متنـاوب ، ينطفـئُ و مـن ثـمّ يـضيءُ . تنـاولا العشـاء و بعـدَ إنتظـار سـنحتْ الفرصـةُ لهـا فإنطلقـتْ منهـا الكلـماتُ و الجُمـل ..

لقـد أخبرتـهُ بـأنَّ كـمال كانَ زميلَهـا في الكلّيـة و أنّهـما تبـادَلا المشـاعر ، و هـذا هـو السـبب الـذي جعـلَ كـمال ينهـار و يـولّي غاضبًـا ، غـير أن الحـرب و ماضيهـا المـؤلم بنَيـا حاجـزًا بينهُـما جعلهـا تـتردّد في اتّخـاذ القـرار ، لكنّهـا لم تخـبره بالسـبب الـذي جعلَهـا توافـق عـلى قبولِهـا بفكـرة الـزواج منـه ، إنتظرتـه هـو ليبـادر بالسـؤال.. لكنّـه لم يسـألْ و لا حتـى إذا مـا تـزال تمتلـكُ شـيئًا مـن تلـكَ المشـاعر.

بل أمسك يداها و قال :

- إني أتفهّمُ كلَّ هذا يا رغدة ، لكنني سأعوّضُ كلَّ الذي فات ، سأحبّكِ حبًا تغارُ منه جميعُ النساء .. و بمرور الوقت ستزول كلُّ هذه الذكريات .

لم تمتلك الجرأة اللازمة لقول الحقيقة ، فإكتفتْ رغدة بسحبِ يدِاها و النظر إلى السّاعة ، فرُفعت الجلسة التي لم تمتَز بأدنى روتين قانونيّ.. ليتهُ حقّق معها و سألها عدةَ أسئلة كما يفعلُ القُضاة و المدعون ، بل ياليتها وكلت أحد المحامين ذوي العلاقات ليخص الأمر! .

عمّ الصمتُ طوال الطريق حتى توقفَ أمام منزلها و قوله :

- تصبحينَ على ألفِ خير يا عزيزتي ، أحبّكِ .

أجابتُه :

- و أنتَ بخير ، مع السلامة.

و دخلت مسرعة ، وجدتْ أباها في الصالة ممدداً على الأريكة يغطُّ في نومٍ عميق رغمَ صوت التلفاز العالي تفوحُ منه رائحةُ النبيذ ، رمَقتْه بنظرات تقول «أنتَ من وضعَني في هذا العذاب ، أنتَ السببُ في كل هذا يا أبتاه» حتى جاءت والدتُها و قطعتْ عتابها الصامتَ بقولها :

- أهلاً حبيبتي ! كيف كانتْ سهرتكمُا ؟. راحتْ تصعدُ درجَ المنزل و تقول :

- رائعة أمي ، سوف أخلدُ إلى النوم تصبحينَ على خير.

دخلتْ غرفتَها و ركضتْ نحو سريرِها.

الآن أدركت لماذا تكون الأسرُّة عندكم من الإسفنج ، لأنّها لو لم تكنْ لفاضَت غرف الفتيات من الدموع و غرقت المنازل ...

جالتْ و صالتْ اصوات في رأسِها ، هذا يقول «رغدة كيف حالكِ؟» و ذاك يقولُ «أحبُّكِ يا زوجتي» و آخر يقول «رغدة أينَ الثلج؟» أولها أحبهُم الى قلب هذه الفتاة لكنها قد حُرمتْ منهُ بخطوبتِها ، لم تنمْ في تلك الليلة من شدة تخبط أفكار رأسِها بعضها ببعض.

و يونسُ الذي قرّر أن يحسّس رغدةَ بحبه و يجعلَها تنسى كمال مع علمِه بحبّها له و أنّها أرادتْ فسخ الخطوبة لا يزالُ مستيقظًا أيضًا و يخطّط لإخراج كمال من حياتِهِ و رغدة ، يبدو أنّ الحرب ستندلع هنا أيضًا.

بعد مرور ثلاث أشهر ...

لم يبقَ أيُّ أثر للحادث سوى الندُبات على يده و رجليه .. استيقظ باكرًا ، استحمّ ثم وجد أمّهُ في المطبخ ، تقدّم ليقبّل رأسَها و إذا بها تلمُّه الى حضنِها و تُجلِسُه على الكرسيّ و تقول :

- كمال إبني ، أعلمُ كميّة العذاب الذي تعانيه ، دعني أخطبُ مريمَ لكَ ...

أشاحَ بنظره عنها و زفرَ زفرةً أحرقت الزهور التي وُضعتْ على

المائـدة ثـم أضـاف :

- يـا أمـي أنـا لا أرغـبُ في التحـدث بهـذا الموضـوع ، أريـدُ أن أرتـاحَ.. أرجـوكِ .

و خـرج غاضبًـا دون أن يتنـاول إفطـاره ، جلـس في حافلـة الموظفـين ، سـارح طـوال الطريـق ذهابًـا و إيابًـا لا يتكلـمُ مـع أي أحـد ، حتّـى فِـراس لا يتحـدث معـه كثـيرًا و يفضّـلُ البقـاء لوحـده كلَّ الوقـت .

يبـدو أنّ الإثنـين قـد كرِهـا بعضَهـما كرهًـا جـمًّا و أصبحـا لا يطيقـان بعضَهـما البعـضَ ، أعنـي يونـس و كـمال ، و فـراس لا يعلـم شـيئًا.

رغـدة كانـتْ تتحـاشى إتصـالات يونـس و تتعـذّر بـأيِّ شيءٍ حتـى امتحـان عـذراء اليومـيّ كي لا تخـرجَ معـه ، و الأخـير بـدأ يلاحـظ تهرّبها المسـتمرّ..

سـئِم مـن كلِّ هـذا فاتّصـل بكـمال في أحـدى الليـالي المثلجـة و أخـبرهُ بأنـهُ قـادم للتحـدثِ معـه ، فخـرج كـمال مرتديًـا معطفـهُ الدافـئ و وقـفَ قـرب إحـدى محـالِّ البقالـة .. سرعـانَ مـا نـزلَ يونـس و دفـعَ كـمالًا نحـو الجـدار و بـدأ يفـرّغ غضبـه بكلماتـه و صيحاتـه :

- كيـفَ أمكنـك أن تفعـلَ هـذا ؟ أتسـعى لنَيـلِ شـفَقتِها بأفعالِـك هـذه؟ يالـكَ مـن جبـان أحمـق ! دعنـا و شـأنَنا ، هـي لا تحبّـك و لـو كانـتْ تمتلـكُ ذرّةَ مشـاعر تجاهَـك لمـا كانـتْ خطيبتـي الآن!.

أندهـش كـمال ! لبرهـة مـن الزمـن كان محتجـز بـين الجـدارِ و يـدَا يونـس الضاغطـةِ عليـه بـدأت تثـير غضبـه فقـال :

- حسنًا ، هل انتهيت من حديثكَ أيّها القوي ؟ سأرحل .

مـا زادتْ هـذه الكلـماتُ يونـس إلا جنونًـا ! فلكَـم كـمالَ عـلى بطنـهِ بـكلّ مـا أوتيَ مـن قـوة .. الآن قـد فتـحَ هـذا المسـكينُ بـابَ الجحيـم بكلتَـي يديـه ، حملـهُ كـمال و لطمـهُ بـالأرضِ و انهـالَ عليـه بلَكماتـه السريعـة حتـى تغـيرتْ ملامـحُ وجهِـه ! ثـم نظـر إليـهِ و الدمـاء تنـزف مـن وجهـه و قـال :

- لحسنِ حظكَ أنّني لا أودُّ ان أجعلَها تترمّلُ قبل زواجِها .

في اليـوم التـالي ظهـر يونـس مكسـورَ الأنـفِ و مقطّـب كملاكـم عقـدَ مؤتمـرًا صحفيًـا بعـد نزالـهِ الأخـير.

كانـتْ رغـدة في المطبـخ تغسـلُ صحـونَ الإفطـار فدُقّـتِ البـاب ، نظـرتْ مـن فُتحتِهـا و اذا بـه الملاكـمُ المشـوّه ، فزِعـت و أطلقـتْ صيحـة عاليـة و ركضـتْ نحـو الصالـة حتـى قـالَ :

- رغدة هذا أنا يونس ، إفتحي الباب.

سرعـانَ مـا ميـزتْ صوتـه و فتحـت البـاب .. لم يجلـسْ حتـى بـل قـالَ مـا في قلبـه و رحـل ، و مـاذا قـال؟

- لـن أدَعـكِ تتلاعبـين بمشـاعري يـا رغـدة ، سـأنتقمُ منكـما شرّ انتقـام و سـتكونينَ مـن نصيبـي رغـمَ أنفـكِ هـل فهمتـي؟ .

إنصدمـت رغـدةُ لـدى سـماعِها هـذا التهديـد و اللهجـةَ التـي تحـدّث بهـا و كيـفَ بـدا وجهُـه ! لم تسـتوعب مـا حصـل إطلاقًـا.

يونـس ظـنّ أنهـا كانـتْ تتلاعـبُ بـه ، و كـمال اصبـح يـضربُ رأسـه بـأيٍّ

شيء تلتقطُه يداه اذا ما بدأ بالتفكيرِ بها..

لقد ضاعتْ هذه الفتاةُ وسطَ هذهِ المشاعر.. أنى لها أن ترتاح ؟ لابدّ أن تفسخَ الخطوبة ، لقد حان الأوانُ للنهوضِ و القتال.

القتال ليس محصورًا على الرجالِ فقط .. يا سيّداتي أنتنّ أيضًا مُطالَبات به ، لا تتحجّجْنَ بنعومةِ الأيدي و ضمور العضلات .. قاتلنَ بعقولكنّ و بدهائكنّ العظيم !

قررت رغدةُ أن تطلبَ من يونس الإنفصال فورَ مقابلتِه ، و لكنهُ لم يردّ على اتصالاتِها ، حتى مجيئهِ في نهايةِ الإسبوع الى منزلها ، طلبَ منها الخروج فرفضتْ .. يبدو أنّ آخر ما تحدّث به يونس لا يزال يدورُ في سلسلةِ أفكاره .. عقدا غرفةَ طوارئ في الصالة ، أخذتْ أمُّها عذراء الى غرفتِها و أبوها كان نائمًا .. بدأت الحوارَ بكلِّ جرأة وحِدّة:

- يونس ، يبدو أننا قد وصلْنا الى طريق مسدود ، و إنَّ فكرة الزواج منكَ لم تعد تلاقي أيَّ قَبولٍ مني ، أنا آسفة و لكن لا يمكنُنا المضيّ قدُمًا .

تسارعتْ نبضاتُه حتى أخذتْ منهُ توازنَه فجلسَ محدودبَ الظهر و هو يقول :

- رغدة أنا اعتذرُ عمّا بدرَ مني ؛ لقد كنتُ في حالةٍ عصبيّة ، أعدُك

بأنني سأكونُ أكثرَ هدوءًا و سأتحمّلُ كلَّ بقايا المشاعر التي في قلبكِ له حتى تبدئينَ بحبي أنا .

ثم بدأ بالبكاء ! نعم لقد بكى ! هذا ما يفعلُه الحبُّ الحقيقي ..

إن لمْ تبكِ من أجلِ مَن تحبّ فما أنتَ إلا هاوٍ ، أو ربما عاشقٌ مزيف..

تبًا للكبرياء .. أيّ كبرياء هذا يجعلُك تفضّل بعضَ المياه المالحة على حبيبتِك ؟ و إن كنتَ تخشى عليها من الإنقراض فلا أنسى ذلك ، يوجدُ الكثيرُ على سطح الكرة الأرضية..

تألمتْ رغدة لبكاءِ يونس ، فحاولت التخفيفَ عنه بقولها :

- إنني صريحة معك و لا أريدُ منكَ أن تتعبَ أكثر ، هوّن عليكَ.. أنتَ رجلٌ نبيل و ستجدُ من تُسعدكَ و تُريحك .

إشتعلَ يونس بعد سماعه هذه الجملةَ فنهض و صرخ :

- لا يا رغدة ، أنا لستُ ساذجًا إلى هذا الحد ، لن أتركك و ستكونين ملكي شئتِ أم أبيتِ .. و سأقتلُ كلَّ من يحاولُ أخذكِ .

و رحل ...

بقيتْ رغدة في مكانِها صامتة تحاولُ إيجاد طريقة ما للخلاصِ من هذه المحنة حتى دخلت والدتُها تستفسرُ عما حدث :

- رغدة ماذا حصل؟ لماذا خرج يونس غضبانًا؟ لقد وصل صوتُ إنطلاقِ سيارتِه إلى الأعلى !.

لم تتفوه رغدة بأية كلمة بل لاذتْ إلى حجرِ والدتِها و بدأت تُفرغ ما في جعبتِها من شحنات سالبة دون تنافر..

يا إلهي هل لاحظتم هذا ؟ أينَ علماءُ الكيمياء و الفيزياء من هذه الحقيقة ؟ موجبة كانتْ ام سالبة سوف لن تتنافر مع أمّك! في الحالتين ستجعلكَ سجين صدرِها و تسمَع دقات قلبها الرّؤوف ، و ستزيحُ همكَ أو تزيدُ فرحكَ أضعافًا مضاعفة..

رغدة لم تتمالكْ نفسها :

- أمي أريدُ كمال يا أمي لقد كنتُ غبيةً بقَبولي يونس ، لم أكن أعلمُ بأنَّ كمال لا يزالُ حيًا .. أرجوكِ دعيهِ يتركني وشأني يا أماه.

كأنها خرجتْ للتوِ من صالة العمليات متجه نحو الأفاقة ، تصرخُ تارةَ و تبكي تارة أخرى حتى تعبتْ و نامتْ على صدرِ أمها كالأيامِ الخوالي..

أرجوكِ أيتها الأم يا نبعَ الحنان .. و أنتن يا أمهاتِ المستقبل .. لا تضعنَ الحواجز ، كوني صديقةً لابنتِك ، كوني صندوقًا لأسرارِها ، لا تقسي عليها و لا تدعي مجالًا للثّغرات ، ستُخترَقُ من قِبلِ الكثير!

لم تكن رغدة تمتلكُ اصدقاءَ و لا أقاربَ بسنّها ، والدتُها كانت منشغلة طوالَ الوقتِ عنها ؛ فوقعتْ ضحيةً لإهمال الأهل..

مهما كبُر الإنسانُ و مهما قرأ من كتب و مجلات ستبقى كلمتهم لها دورُها ودفؤها الخاص.

أفاقت رغدة ، وجدتْ عينَي والدتِها تحدقان بها بكلِّ حنان ، و

عـذراء جالسـة أمـام التلفـاز تُنجـزُ فروضهـا ، مسـحتْ أمُّهـا عـلى جبينِهـا و عرضـتْ عليهـا إعـدادَ العشـاء سـويًا.

ستكونُ ليلةً مثيرة جدًا.

يقولـونَ إنَّ الطبـخَ هـو نَفـسٌ .. فـما بالـكَ إذا امتزجـتْ نفـسُ الأم بابنتِها كيـف سـيكون طعمه ؟

خلـدتْ عـذراءُ إلى النـوم ، وربُّ الأسرة كان خـارجَ المنـزل ، ربمـا يحتـسي مـع أحـدِ الأصدقـاء .. و الأمُّ و ابنتُهـا جالسـتان معًـا لوضـعِ النقـاط عـلى الحـروف ، طـال الحديـثُ و كلّفهـما الكثـيرَ مـن المناديـل ، لكنـه أزاحَ الأثقـالَ التـي أهلكـتْ رغـدة حتـى بانـت اسـتقامة عمودِهـا الفقـريّ فـورَ إنتهـاءِ الحديـث.

بعـد سـماعِها لمـا نطقـتْ بـه ابنتُهـا و كيـف كانـتْ تغـصّ بالـكلامِ و تشـهقُ في البـكاء ، اقتنعـتْ بقضيـة رغـدة .. و في الصباح خرجـتْ مبكـرًا للقـاء يونـس في مـكانِ عملـه بعـدَ تجاهلـهِ للمكالمـات.

كانـتْ تصعـدُ الى الطابـق الثـاني حيـثُ مكاتـب يونـس و زملائـه و إذا بكـمال واقـف في الممـرّ يزفـرُ دخانًـا ! نعـم لا تسـتغربْ في يـوم مـن الأيـام إن علمـتَ أنّ الطبيـبَ مدمـنُ كحـول ، و شـيخَ الديـنِ يصـلّي الفجـرَ قضـاءًا ، و المـدرّبَ الريـاضي يركـضُ حاملاً أرطـالاً مـن الدهـون.

حـذاري مـن الصدمـةِ و الذهـول ، هـذا مـا تريـدُه المـبرراتُ و الظـروفُ لتقـضي عليـكَ مـا إن توسـعُك اللكـماتُ و الـركلاتُ ضربًـا لتطرحـك أرضًـا و تجهـزَ عليـك بـأشرسِ الإسـقاطات..

كان يشهقُ سيجارتَه و عيناه تنظران في الأرضِ كأنه يبحثُ عن شيءٍ ما ، دنتْ شيئًا فشيئًا منه حتى لاحظَ أنّ شخصًا ما يراقبُه ، ثم قالت :

- مرحبًا..كيف حالكَ يا بني؟.

و كأنّها رغدة التي تحدثت ! تسارعتْ دقاتُ قلبهِ و لم يردّ عليها مباشرة ، إستغرق وقتًا ليستجمع قواه.

رباهُ ارحم هذا الشاب ، كأنه نسي كلمات اللغة و مقاطعها !

خرجت بعضها ، بعدَ نضال :

- بخير يا خالة ، كيف حالكِ أنتِ؟.

- الحمدُ للهِ بخير ، أبلغْ والدتكَ السلام ، عن إذنك.

ظنّ كمال أنها جاءت إلى هنا كي ترى زوجَ ابنتها لا أكثر ، ربما لتتحدثَ معه او لأيّ سببٍ ودّي قد يحصلُ بين الأهل ، لم يعلمْ بأنّ رغدةَ ما عادتْ تلك المترددة المتهربة.. ليته!

و بعد عدة دقائق مرّت أمُّ رغدة من أمام مكتب كمال و هي تعصر منديلها بقبضتها المسنة ، بدا عليها الإستياء ، تألم كمال و لم يتماسك فراحَ يركضُ نحو يونس ، دخلَ و وجدهُ جالسًا على الكرسيّ .. نهض يونس و قال منفعلاً :

- أخرج من هنا يا خبيث !.

ردّ كمال :

- ليس قبلَ أن أعرف لماذا رحلت و هي تبكي.

- وما شأنكَ أنت؟ إنها عمتي ، هيا انصرف.

و بدأ بدفعِ كمال نحوَ الخارج ..

لم يستطع كمال أن يتفوّه بكلمةٍ واحدة بعد هذا اللقب !، رجعَ مهزوما مطأطئ الرأس.

كمال الذي كانت لا تفارقُه صورة رغدة و يونس سويًا ، لم ينم منذ تلك الليلة ، لاحظَ الجميعُ حزنه و عزلتَه ، حتى فراس حاولَ التدخلَ بعد أن أخبرتْهُ أمه بكلِّ شيء و لكنّ كمال لم يتجاوبْ مع أحد.

بعد حديث والدةِ رغدة و يونس تبيّن أن لم يعدْ هناكَ أيُّ توافق و يجب أن تلتجئ إلى المحكمة لفسخِ العقد ، و لكن يجبُ أن تكلّف أحد المحامينَ الأكفاء ، و هذا يحتاجُ مالاً كثيرًا لا تملكُه عائلةُ رغدة.

تبًا لأموالكم هذه ..

مضى يومانِ على اللقاء ، في الصباحِ الباكر جاء يونس إلى منزلِ رغدة و لكنها طردتهُ و لم تفتحْ له الباب!.

رغدة.. لم يكن حالُها أفضل من كمال بل بدتْ أتعس ، لا تعرفُ معنًى للنوم ، و لا تمتلكُ أيَّ وسيلةٍ للتخلصِ من يونس..

كان ليونس علاقات وطيدة مع الكثير من العاملينَ في الشركة ، طلبَ من أحدهِم أن يجلبَ له سيرةَ كمال الذاتية ليغيّر بعضًا من المعلومات كي يُطرَد.. بعد علمِه بمصدر رزقِ عائلة كمال الوحيد ! هذا ما يفعله جنون الحب و التملك !...

و في إحـدى الليـالي القارسـة جلـس يونـس يتصفّـح ملـفَّ كمال الشـخصيّ ، حتـى وصـلَ الى والـد كـمال ، إسـمُه (عبدالرحمـن حامـد) ، الحالـة (متـوفٍّ/ حـادث سـيارة) هنـا رمـى يونـس بالملـفّ و أخـذ يـصرخ :

- كلا ! لماذا يا إلهي ؟ لماذا يحصل هذا معي؟.

مـاذا جـرى لـه ؟ هـل شـعرَ بـالأسى عـلى كـمال ؟ و لكنـهُ كان عـلى علـم بأنـهُ يتيـمُ الأب منـذُ لقائهـما الأول.. يبـدو أنّ هنـاكَ شـيئًا مـا لا يعرفـهُ أحـد..

أنّ والـدَ كـمال تـوفي إثـر حـادثِ سـيارة ؟ كانـا عائدَيـن الى المنـزل بعـد زيـارة أحـد أصدقـاءِ والـده ، إرتطمـت بهـما سـيّارة يبـدو أنّ سـائقهَا كان محتسـيًا - كـما أسـتنتجه ظبـاط كشـفُ الدّلالـة - ، السـائقُ فـرّ هاربًـا و لم يتـمّ التعـرف عليـه ابـدًا.

قبـل أن يهاجـر يونـس و عائلتُـه أوصـاه والـده و هـو عـلى فـراشِ المـوت أن يعـوّضَ عائلـة الرجـل الـذي قتلـه في أيـامِ طيشـه ، و مـن هـذا الرجل؟ عبدُالرحمـن حامـد.. والـدُ كمال!

هل عرفتُم سببَ صعقةِ يونس و صدمتِه؟

أخبرهُـم بـكلِّ التفاصيـل التـي حدثـت في تلـك الليلـة ، بعـد فـراره ذهب الى مستشـفى المدينـة و بحـثَ في ثلّاجـاتِ المـوتى حتـى وجـدَ المتـوفى إثـر

الحادث ، و بعد أخذهِ المعلوماتِ من إحدى الممرضات رحل ، و من هنا بدأت توبتُه و عزوفِه عن الكحولِ و التهوّر..

لم يكن يجرؤ على الذهابِ إلى منزل عبدِالرحمن ابدًا و لكنّه كان يدّخرُ مالاً ليسدّده إلى أحدِ أولادهِ بعد بلوغِهما ، لكنْ هذا المالُ صرفهُ يونس خلال الهجرةِ و حتى إيجاده المسكنَ و الوظيفةَ و لم يبقَ منهُ شيء .

تقلّبت الصور و الذكريات في مخيّلةِ يونس و أخذتْ تتلاطمُ ببعضِها البعض حتى صدعتْ رأسه و كادتْ أن تفجّره ، خرج من المنزل ليتمشى قليلاً و يفكّر بما سيفعلُه.. لم يعدْ حتى طلوعِ الشمس ، خلد إلى النوم متجاهلاً العمل!

استمرّ على هذا المنوال ثلاثة أسابيع.. لم يردّ فيه على أحد و لم يتكلم مع أحد ، إلتزمَ الصمتَ و الشرودَ فقط.

إحدى الليالي صادفت أعيادَ الميلادِ المجيد ، خرجتْ والدة كمال و محمد مع سامر و زوجتِه لمشاهدة الألعاب الناريّة و المفرقعات وهي تحترقُ و تلوّث الجو!.

سأتركُ هذه المسألةَ في أذهانِكم : أنصِفوا الغلافَ الجوي يكفيهِ دخانُ الحروب!

كان البابُ يُدقُّ بجنون ، فتحهُ كمال فوجد يونس ، بدا هزيلاً محطمًا.. قالَ بصوتٍ خافت :

- هل يُمكننا التحدثُ يا كمال؟.

تغيرتْ ملامح كمال و تعاطفَ مع هذا الإنكسارِ الواضح..

- تفضّل يا يونس.. الدارُ دارُك يا رجل. رحّب به كمال و نهضَ نحو المطبخ و إذا بيونس يمسكُ يده و يقول :

- لا وقتَ لدي ، أرجوكَ اجلس.

بدأتْ أنهار العرق تنضَحُ من جبينه رغم برودةِ الجو ، و بدأ يتكلمُ عن والدِه و عن الوصيّة ، و ما هي إلا دقائق حتى بدأ كمال يسقط عينيه على يداه المتشابكتين.. و كيفَ لا وقد ذكرَ يونس تلك الحادثةَ التي أيتَمتْهُ و قفزتْ به نحوَ سيل المسؤوليّة الجارف؟ طالَ الحديثُ و تنوّعتِ الإنفعالات ، هذا يبكي و الآخرُ يهوّنُ ، حتى ختمَ يونسُ الحديث :

- لقد كانَ والدي سببًا في حرمانك و لكنّني لن أفعل ، أرجوكَ اصفحْ عنّا و ترحّم على روحِه ، لقد تابَ والدي أقسمُ لك إنه لم يكنْ ينامُ قبلَ أن يصلّي من أجلِ والدِك.. لقد أثّرت تلك الحادثةُ فيه كثيرًا.

تأثّر كمال بعد سماعِه تلك التفاصيل ، أخذَ يونس و عانقَه و بكَيا حتى جفّتِ الدُّموع.

- سأطلبُ عشاءًا ساخنًا.. هيا ناوِلني الهاتف.

تناولا العشاءَ و لم يتركهُ يرحلْ وحيدًا ، أوصلَ يونس الى مسكنه و عاد.

وعدَا بعضًا أن يُبقيا كلَّ التفاصيل سرًا دونَ أن يُخبرا أحدًا مهما حصل.

☯ ☯ ☯

كان يومًا مليئًا بأشعةِ الشمس و ضحكاتِ الصغار.. على غيرِ عادتِها إستيقظتِ الفتاةُ مبكرًا ، شربت كوبًا من الشاي الساخنِ ممزوجًا بالحليب..

فلْنقف هنا قليلاً . . . لماذا لم تحتسي الشاي لوحدِه؟ قد تظنّونَ أنَّ الشايَ مضرٌ أو أنَّ رغدة لا تحتسيهِ لوحده ، لا يهمّ ماذا ظننتمْ بل المهمُّ هو هذا الدمجُ ، ماذا لو دمجتم العصبيةَ ببعضِ الحِلم؟ أو الإهتمامَ بشيء من الإهمال؟ ماذا عن الصبر بمقدار ضئيلٍ من الاستعجال؟ يمكنُ أن اكتبَ لكم ما لا نهايةَ له من تلكَ الإمتزاجات لكنْ حاولوا أن تطبّقوا هذه الفلسفةَ ، (فلسفة الين يانغ الصينية) في كلِّ شيء و سترونَ السعادةَ بأمِّ عينيكم تتجلّى في كل النواحي.

خرجتْ عذراءُ للّعبِ مع صديقاتِها إلا أنها سريعًا ما دخلتْ تحملُ في يدها ظرفًا اخذتهُ رغدة منها و بدأتْ بفتحِه لترى ما في داخلِه ، و إذا بصيحة عالية ملأتْ موجاتُها زوايا البيتِ الأربع و تلَتْها صيحات أُخَر و قفزات و ضحكات ، كيفَ لا وقد استلمتْ ورقةَ انفصالِها الرسميّ من يونس! و معها كذلك رسالة كتبَ فيها :

- لقد أحببتُكِ حبًّا جمًا.. ذابَ قلبي في كلِّ لقاء.. لم أكنْ اعرفُ معنًى لأحاديثِ العشّاقِ لكنّني صرتُ عارفًا بها ، لا أريدُ منكِ سوى أن تكوني بخير.. و ها أنا احرّرُكِ من غلطةٍ إقترفتِها أنتِ و لم يكنْ

لي فيها أيُّ ذنب لعلَّ اللهَ يجعلُ هذه التضحيةَ في ميزانِ حسناتي! وفّقكِ اللهُ وحفِظكِ.. تحيّاتي.

شعرتْ بالأسى و تأنيبِ الضّمير لكنّ شعورَ الحرية أعظم ، هل من عصفورة تنقلُ هذا الخبرَ لكمال؟

كيفَ تقنعُه بأنَّ كلَّ شيء حصلَ بلا لون و لا رائحة ؟! أنى تخبرُه بأنّ قلبَها كان يتنفس ورئتاها تدق !...

يشرفنا أن ننقل هذا الخبر و لكنه ليس ضمن صلاحياتنا !.

لِندعِ الأيامَ تلعبُ دورَ تلكَ العُصفورة..

اختفى يونس.. و لكن هذه المرة إلى الأبد : قدّم استقالتَه ، و قرّر أن ينتقل و عائلتَهُ إلى مدينة أخرى لا تمتُّ للمدينةِ التي يسكنُها كمال و رغدة بصِلة حتى من ناحيةِ الطقس ، فهو لا يقوى على أن يراهما في أيّةِ حالة ، أرادَ أن يمحو الماضي و يمضي قدُمًا.

ما أقساها من حالة حينَ يسيطرُ عليك العقلُ سيطرة تامة ولا يعطي للقلبِ فرصةَ التفوّهِ بكلمة ، كأنّ قلبُك ترك وظائفه عدا ضخّ الدم.. و مرغمًا!

سيصلُ - أو وصلَ - الكثيرُ منّا إلى هذه المرحلة و الأسبابُ لا تعدّ ولا تُحصى ، أيُمكنُ أن يسترجع تلك المهمات و يعودَ كلُّ شيء؟ ربما لا.. فيبقى المرءُ هكذا طيلةَ أيامِ عمره.

في الوقتِ الراهن لا يعلمُ كلٌّ من رغدة و كمال ما يجولُ في بالِ

الآخـر.. كلاهُـما يحـترقُ ويتـألم ، يمـضي الوقـتُ عليهِـما كسُـلحفاةٍ طاعنـة.

منـذُ رؤيتـهِ لرغـدة تسـيرُ عـلى حبّـاتِ الرمـال حتّـى الآن تغـيرت أحوالـه كلهـا. ذقنُـه طويـلٌ و شـعرُه أطـول، يدخّـن السـجائرَ كثـيرًا و يتمـرّنُ قليلاً ، لا يتحـدثُ سـوى بِـرؤوسِ أقـلام ، و لا يخـرجُ مـن منزلِـه بعـدَ انتهـاءِ الـدوامِ سـوى للتبضـع أو للمسـجد.

في صباحـاتِ إحـدى الأيـام و التـي صادفـتْ جمعـة دعـتْ أمُّ كـمال والـدةَ فـراس لتغيـير الجـوّ السـائدِ في المنـزل ، تمـتْ تلبيـةُ الدعـوة و جلسـت العائلتـان معًـا تتبـادلانِ الأحاديـث ، و بعـد الغـداء سـمِع بطَلَنـا مـا صدَمـه :

- صحيح يا أم كمال هل علمتِ بأنّ عائلةَ يونس انتقلت؟.

إنزلـقَ كـوبُ الشـاي فـورًا مـن يـدِ كـمال منتـثرًا عـلى الأرض. لم يصـبر كـمال أرادهـا أن تُكمـل :

- إلى أين انتقلوا يا خالة؟ و ماذا بشأنِ وظيفته؟ وخطيبته..؟!».

بينـما نهضـتْ منـى و مريـم لرفـعِ الزجـاج السّـاخن اندمـج البقيـةُ مـع كـمال و أمِّ فـراس

- لقد استقالَ يا ولدي ألم يخبرك؟ كما أظنُّه فسخَ الخطوبة.

مـن الصعـاب التـي واجهتنـي وصـف اتّسـاعَ قفصـهِ الصّـدري بعـد آخـرِ جملـة؟ لقـد أفـرغَ غرفـةَ الضيـوفِ من الأوكسِـجين سـاحبًا إيـاهُ إلى جوفِه فإختلـفَ التركيـزُ حـالَ سـماعِه للخـبر.

آه لو كان في مقدورنا سرد المواقف ببعض ابيات الدارمي ...

أجابَها فورًا :

- بلى يا خالة لقد ودّعَنا أنا وفراس ، لكنني لم أسألهُ عن وجهتِهم.

إستغرب فراس لما سمِعه ، كمال لم يكن موجودًا يومَ جاء يونس ليودّعه ، ربما ودّعه في وقتٍ لاحق لم يكن حاضرًا فيه.

أم كمال بانتْ تجاعيدُ فكِّها عندَ ظهور بشاشةِ كمال ، كأنَّ الربطَ بين الأمِّ و ابنِها و الأبِ و ابنتِه ربطُ توالٍ! مع إهمالِ فرق الجهدِ و التيّار.. أي ليسَ من الناحية الفيزياويّة البحتة ، إن شعرَ الابنُ بغصة عابرة لوجدتَ يدَ أمّهِ على قلبِها.. سبحانَ الخالق! كيف أبدعَ في كلِّ التفاصيلِ جلَّ وعَلا.

إنقضت الدعوة ، رحل الضيوفُ تاركينَ وراءهم سعادةً لا توصف، و حقّقتْ امُّ كمال فوقَ ما تصورتْ أنها ستحقّقُه بدعوتِهم.

و الآن على الجنديّ أن يضعَ الإستراتيجيةَ المناسبةَ و يجمعَ الذخيرة وكلَّ ما يحتاجُه من صواريخِ العشق و بنادقِ الشوق.. ليشنّ هجمةً شرسةً يمحو بها الفراق عن بكرةِ أبيه ، يبدّلُ فيها الحالَ كتبديلِ الأفعى لجلدِها القديم.

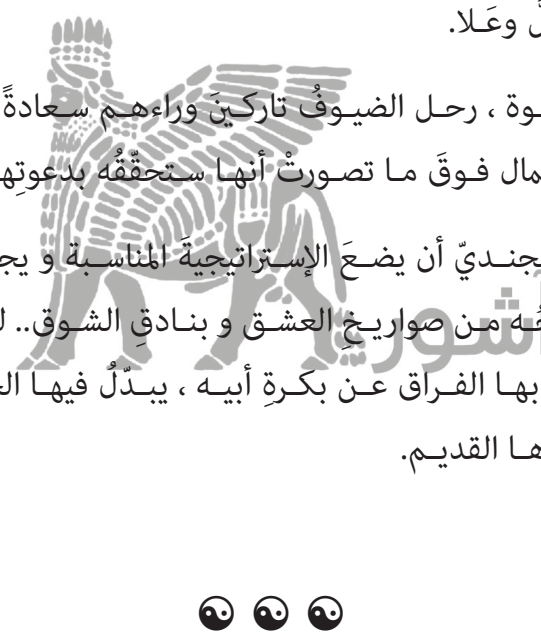

لم يقدرْ على الانتظار حتى الصباح ، وجد أمه جالسة تشاهدُ التلفازَ فجلسَ بقربها.

يا لَبراءةِ هذا الموقف . . . عندما تقصدُ شخصًا عالِمًا بمقصدك!

دامتْ هذه الرهبةُ إلى أن نطقتِ الأم :

- قلْ يا عزيزي ماذا يدور في بالك؟.

- رغدة يا أمي ، متى تذهبينَ لمقابلةِ والدتِها؟.

أطلقتْ ضحكةً متعجبة ، ثم أضافتْ :

- يا قرّة عيني ، أمهلها بعضَ الوقتِ ، لقد فسختْ للتوّ ، إصبر قليلاً.

وكأنّها لا تعلمُ كم صبرَ.

إستسلمَ لرأي نبعِ حنانه..

- حسنًا ، و لكن إن طالت المدة سأذهبُ وحدي!.

غرِقا بدوّامةٍ من الضحكِ بعدَها ، و من ثمّ صعدَ كمال لغرفته.. لم ينمْ إلى الصباح ! هذه المرةُ فرحًا و ليس حزنًا.. كان يفكّر، إنها فترة التفكيرِ الإيجابيّ لهما.. فترةٌ خالية من الدموع مليئةٌ بالأملِ والتفاؤل.

مرّ أسبوعانِ على الإنفصال ، زارَ كمال و أمهُ منزلَ رغدة للتعزية لا أكثر ، لقد توفّي والدُها!.

تبًا للحربِ و تبِعاتها و سماسرتِها.. ها قد أصبحنَ وحيدات ، خائفات على الرُّغم من كونهِ سكيرًا فاقدًا للوعي طوال الوقت ، و هذا سببُ وفاتِه الذي شُخِّصَ بعد فحصِ الجثة ، لكنه كان يبعثُ

بوجـوده شـيئًا مـن الأمـان ، في نهايـة المطـافِ هـو الأب.

كـمال لم يـترك رغـدة ، كان يأخـذُ امـه و منـى لمنزِلهـا كلّ يـوم ليخفّـف عنهـا.

بعـدَ فقـدانِ والداهـا -رحمـه اللـه- لوعيـه و اتصالِهـا بالإسـعاف وجدتْـهُ أمـامَ عينيهـا.. لم تلقـي التحيـةَ حتـى ، اكتفـتْ بالنظـر في تلـكَ العيـون ، وقـف أمامَهـا ، أحسّـت بجيـشٍ مـن المقاتلـينَ قـد صـاروا تحـتَ إمرتهـا و بإمكانهـا احتـلالُ العـالمِ الآن.

امـا البقيـة . . . عائلـة فـراس و بعـضُ الأصدقـاءِ الذيـن قدِمـوا عنـدَ دخولِـه الإنعـاش لم تُعِرهـم أيَّ انتبـاه.. لم تحلّـل صورهـم حتـى! إكتفـت بكمالِهـا كأنهـا بـدأتْ تعـوّض تلـكَ الأيـام..

هـل جربتُـم هـذا الشـعور؟ يطـولُ الفُـراق و في لحظـةٍ مباغتـة يعـودُ كل شيء كـما كانَ و كأنّ البعـدَ لم يكـن.. يمكنُهـا الآن البـكاءُ بأمـان..

كان لوالدِهـا أمـلاكٌ مُسـتأجرة ، لكـن بعـد سـفرهِم انقطـع التواصـلُ مـع المسـتأجِرين ، منهـم مـن مكـثَ في مُلكـهِ و منهـم مـن تـرك المدينـةَ هاربًـا.

بعـثَ كـمال الى أسـطة محمـد الـذي كان يتواصـلُ معـه بـين الحـين والآخـر -تذكرتمـوهُ أليـسَ كذلـك؟- أن يجمـعَ الأمـوالَ و يرسـلَها مـع أحـد موظفـي الشركـةِ ، في نهايـة الشـهر سـلّم كـمال الأمـوالَ لوالـدةِ رغـدة و وعدَهـا بأنـه سـيتكفلُ بإيصالهـا لهـم كلَّ شـهر.

مضت الأيامُ الحزينة و لم يبقَ من علامة الحزنِ سوى ملابسَ سوداء و غصّة عنيدة لا تفارقُ خليلَها بسهولة ، لم يتوقف فيها أحدٌ عن مساندتهِم ليوم واحد .. ام فراس و مريم و منى ، و الجميع دونَ استثناء.. حتى محمد الصغير كان يذهب ليرسمَ مع عذراء ، يبدو أن حبَّ الفنِّ قد جمعهُما!

مرتْ ثلاثةُ أشهر على وفاة والد رغدة ، لابدَّ لكمال أن يتقدمَ لها فهي الآن في أشدِّ الحاجةِ له ، و هذا ما كانَ يريدهُ قبل أن يفارقَ والدُها الحياةَ فجأة ، يبدو أنه الوقتُ المناسب الذي يتقدّم فيه كمال لطلبِ يد محبوبتِه ، و بعد مشاورات و مناورات تجمّع الأهلُ و الأحبةُ في منزلِ الفتاة ..

كانت الأجواء متناقضة لكن ما يهمّ هو أنّ كمال و رغدة عقَدا رسميًا و لم يبقَ غيرُ بعضِ الإجراءات الروتينية.

لا يمكنُنا ان نوصل لكم سوى عدّة كلمات على أملِ أنْ تُشعِركم بحرارة أيديهِما وهما يسيران في ممراتِ المحكمة.. أو كيف يُمكن أن نحسّسكم بمدى قوّةِ اعتصارِها ليد كمال عند تحليلِهما لفصيلةِ الدم في المختبرِ.. بدت و كأنها عشرون سنة مرت على الزواج رغم حرمانِهما حتى من زفافٍ بسيط نظرًا للظروف .

و مع بدء العامَ الدراسي الجديدَ و زواجَهما. إجتمعتِ العائلتان ، أخبر كمالُ عمتهِ أن تنتقلَ و عذراء للشقة المجاورة لشقتِهم التي كانَ قد استأجرها لنفسِه ، و هو و رغدة سيعودانِ ليُكملا آخر سنين البكالوريوس ويحصلانِ على شهادةِ الهندسة. رتّب لكل شيءٍ من

المـالِ إلى المعيشـةِ ...

حجزَ التذاكر و لم يتبقى غيرُ أسبوعٍ على السفر.

إنـه يـومُ العـودة ، يـا لَـه مـن شـعور! غـادَرا الوطـنَ قبـلَ عـدة أعـوام كلٌّ بمفـردِه و شـاءت الأقـدار أن يرجِعـا سـويًا.

حطـت الطائـرة وكانـت الرحلـة كشـهرِ عسـل ، نامـت عـلى كتفِـه ، ولمـا تصحـو لا تحـرّك رأسَـها بـل تبقيـه عـلى كتفِـه و تتأمـلُ الغيـومَ العاليـات ، و الجنـديُّ يحـولُ تركيـزه كلـهُ و قوّتـه ويضعُهـا في كتفِـه ، لكنـه شـعر بالنـدمِ لأنـه لم يرتـدِ أنعـمَ ثيابـهِ بـدلاً مـن هـذا الصـوفِ الـذي قـد يزعـجُ خدّهـا المسـكين.. في طريقِهـما الى المنـزل لاحظَـا الخـرابَ الـذي أحدثتْـه الحـربُ ، إنقبضـتْ قلوبهُـما بعـد رؤيـةِ تلـك المشـاهدِ المريعـة.

حـينَ وصولِهـما شـمّر كـمال عـن سـاعدَيه و طلـب منهـا أن تبقـى خلفَـه، لا أحـد يعلـمُ مـاذا أو مَـن سـيكونُ في الداخـل ، فهـو يخـشى عليهـا حتـى مـن ذراتِ الـتراب! ومـن هنـا بـدأتِ الثـورةُ ... بـدأ الإثنـانِ بتنظيـف الـدارِ وترتيبِهـا حتـى المسـاء ، خـرج كـمالُ ليحـضرَ العشـاء و عنـد عودتـهِ وجدهـا نائمـة.. أيـن؟ في المـكانِ الـذي كان ينتظـرُ فيـه مكالماتِهـا الهاتفيـة. وضـع الطعـامَ جانبًـا وجلـسَ أمامَهـا يراقـبُ ارتفـاعَ وهبـوط صدرِهـا ، يسـتمعُ لتلـكَ الأنفـاسِ الدافئـات ، ولم يتمالـكْ نفسـهُ إلا راحَ

يمسحُ على رأسِها ويقبّل جبينَها حتى استيقظتْ :

- كمال لماذا تأخرتَ يا عمري؟ سأغسلُ وجهي ونتعشى.

ردّ وهو لا يزالُ في تلك الهالةِ العاطفية :

- حسنًا رغدتي، هيا أعطِني يدكِ .

يالَسعادةِ الإثنين!..

تنوعت القبل تلاصقت الأجساد حتى أقشعرت الأبدان ...

أحيانًا عند شعوركم بالسعادةِ تتبادرُ لأذهانِكم مخاوفُ جمّة منها أنَّ هذه السعادةَ لن تدوم ، أو أنَّ شيئًا ما سيحدُث ويأخذُها بعيدًا كضريبةٍ لضحكاتِكم...

تتحققُ هذه الأفكارُ غالبًا فهذه هي الحياة الدنيا ! ، لا تدعْها تحرمْك من أن تعيشَ لحظاتِ السعادة بكلِّ جوارحَك وتفاصيلِها.. ولكلِّ حادثٍ حديث.

أكملا العشاءَ وأخذ كمال يعرّفُها على أركانِ المنزل وغرفِه حتى وقتٍ متأخر ، وهكذا انقضى يومُهما الأولِ في الوطن.

خرج مبكرًا من الغرفةِ دون أن يوقظَها ليتمّم بعضَ الإجراءاتِ اللازمة لإكمال دراستهما ، لكنه سمعَ صوتًا خاملًا ينادي :

- مهلاً كمال لا تخرجْ سأعدّ الفطور.

رجع مهرولاً ليقبّل يديها ويهمسَ في أذُنها :

- لم أشأ أن أوقظكِ من نومِك ، كنتِ كفلَقة قمر يا أميرتي.

تناولا الإفطارَ معًا.. يبدو أنهما قد أكلا ما يكفي ليومٍ كامل! ما إن يبلعْ لقمةً حتى تضعُ الأخرى في فمِه.

قبّل جبينها الآمن وخرج ، راح ينظرُ الى التغيّر المبكي.. إلى البناياتِ المهدّمة.. آثارِ القصف والخراب.

ولما وصلَ الجامعةَ لم يتمالك نفسه ، بدأتْ دموعُه تهطلُ على خدّيه ، ينظرُ إلى المكان الذي كان ينتظرُ فيه الباصَ و الى مكانِ وداعه مع رغدة مرة أخرى ، يتمتمُ بداخلِه

- الحمدُ للهِ هي زوجتي الآنَ بعد كلِّ تلك المعاناة.. الحمدُ لله.

دخلَ و هو يمعنُ النظرَ و يسترجعُ الذكرياتِ حتى وصل بابَ القسم ، لقد سافرَ أغلبُ التدريسيين و تمّ تعيينُ بعض طلبةِ الدراسات العليا بدلهُم بأجورٍ يومية!

أن اردتم أن تنقصوا من قدر المجتمع وتكسروا مفاصله فحقروا علمه وطالبيه ، ستكون النتائج مُرضية ، أعدكم...

عاد منهكًا متشنّج العضلات ، وبفتحِها بابَ المنزلِ كأنّ التشنجَ لم يكن في أيٍّ منها.. نعم إنه سحرُ الحبّ...أو بالاحرى سحر النساء ...

لا يعلمُ الكثيرُ منا يا سادة سوى أنّ كيدهنّ عظيم! أليسَ كذلك؟

و ماذا عن عظَمةِ رحمتهنّ و حنانهنّ؟ الحبّ الدافئ في قلوبهن؟ لا تُصغوا لمن خاضَ أو كانَ ضحية تجربةٍ معينةِ مع كوبرا سامة..

لو لم تكن حواءُ عظيمة لما أكلَ أبونا تلكَ التفاحة..

لما أرادَ (الخلودَ) برفقتِها.

كثير من البريئات وقعن ضحايا ايضا ! ، هذا لا يجعلكم جميعكم مذنبين ..

وضعَ يديها بيديهِ ورأسه بحجرها وهي تداعب خصلات شعره حكى لها كل ما رأت عيناه وفكرت خلايا عقله .

سيباشرُ العريسانِ الأسبوعَ القادم ، عليهِما أن يخرُجا لشراءِ بعض المستلزمات.

سنةٌ واحدة تفصلهُما عن التخرج ! كتب كمال لأهله و أخبرهُم بكلِّ شيء .. عودته للعملِ مع أسطة محمد ، و الاستعدادُ لإستئنافِ الدّراسة ، ووضعُ البلدِ والمنطقة ، كما أنه كان يرسلُ إيجارَ أملاكِ أبي رغدة إلى عائلتها كلَّ شهر.

ها قد ترتبتِ الأمورُ بمشيئةِ الله ، بقيَ عليهِما الإصرارُ والمواظبة.

بدأتِ السنةُ الدراسيةُ ببراءتِهما وجمالِ روحِهما النقيّة ، يحضرانِ الفصلَ سويًّا ، يتمشان في الحدائق ، ويأكلان الطعام سويًا في النادي ، أمافي البيت تجلسُ في حُجرهِ ليسمّعَها ما حفِظَ ويتبادلانِ الأدوار، ما من موضوعٍ يقفُ في طريقِهما إلا وفهِماه.. انصبّتْ على سعادتِهما الأعينُ وبهجتِهما ، هل من ضريبة على هذين العاشقين؟ لقد مضَيا

في سبيل الحب وذرفا الدموعَ حتى تقرّحتِ العيون وذبلتِ الأجفان، لقد دفَعاها مسبقًا.. ليسَ من المنطقِ أن تكون.

هل تذكرونَ محمدًا الصغير؟ باتَ رجلاً و لم يتبقى سوى أيام على تخرّجهِ من أحدِ أرقى معاهدِ الفنون الجميلة ، أصبح فنانًا مشهورًا لدى الجميع و تغيرتْ أحوالُهم المادية كثيرًا ، كما أنّ عذراء الفاتنة الآن خطيبتُه ، وستدخلُ نفسَ المعهدِ في السنةِ القادمة . يالها من أيام عندما كانا يلوّنانِ معًا ويلطخا يدا بعضهما البعض ، قصصِ العشق تبدأ بموقفٍ بسيط ، كالنيرانِ التي تلتهمُ أوسعَ الغابات بدايتُها شرارة ، كما اللؤلؤةُ الباهضةُ بدايتُها حبةٌ من الرمل!

عند اللقاءِ كانا يتحدثانِ عن أحدث مدارسِ الفن ، عن آخر لوحاتِ العمالقة وطرقِ مزجهِم للألوان ، كان هذا المدخلَ ؛ هذا ما ربطَ روحيهِما برابطةٍ خفيّة لاسلكية.

وكم من رباطٍ عُلّقتْ عليه الآمالُ فرَخى وفكّت عقدتُه او عُقد فوقها وعُقد حتى باتتْ فكرةُ فتحِه من المستحيلاتِ السبع!

لكَ يا سيّدي.. يا صديقي ... تمسّك بها مهما حصل ، قاوِم كلَّ الصّعابِ ولا تجبُن ، كن جنديًا باسلاً كما كانَ.. صبرَ حتى ظفر، لا تيأسْ.. إسعَ في سبيلِ ما تحبّ حتى تذوقَ طعمَ ثماره ، و لمَ لا؟

ستعيشُ لكن كم حياة؟ وإن نالَ منك الكِبر ؟ ستجلس في المقاهي تسرد سيطرة جبنك وكسلك وكيف ضيعتها ؟

يا رجل.. ستحقّق ما تشاءُ في نهاية المطافِ فقط ثابر ، و كن واثقًا بربّك و بنفسكَ انت ، نعم (انتَ) سيشجّعُ انت.. و(انتَ) يدعمُك ، لا تنتظرْ هذا وذاك ولا هي وتلك ولا أيَّ ضميرٍ غائبٍ كان ام حاضرًا..

ولكِ سيدتي ... لا تدعي كلامَ قليلي الثقةِ محدودي الأفكارِ يؤثّرُ في حياتِك ، إرميه خارجَ رحالِك وانطلقي.. أنت لستِ نصفَ المجتمع ، أنتِ هي المجتمع ! فحافظي على (أنتِ) ، حرري شغفكِ.. خيالكِ.. ولا تنشُري على حبلِ الأنوثةِ أيَّ فكرة شيطانية.

في صباح يوم الأحد خرجا معًا دونَ تناولِ الإفطار حتى ، إستغرقا ليلةَ أمس في دراسةِ امتحانِ اليوم.. إلا أنَّ الاستعدادَ بدا واضحًا من قوةِ تشابكِ يديهما ، أستقلا الحافلة ، وما أن جلستْ بقربهِ وأتكئ رأسها على كتفِه حتى انفجرت تلك الملغومة! نعم انفجرتْ بجوارهما تمامًا من جهةِ الجنديّ!

كانتْ تستهدفُ قواتِ الاحتلال ، و من قالَ إن زوجَ العصافير هذا منهم؟

ويلٌ لكم يا محرّفي الأديان أينَ مفرّكم من السماء؟؟

لم يجرؤ أي احدٍ على سحبِ الجثث المحترقة ، جاءتْ الإسعاف بعدما شبعتِ النيرانُ وتفحما ...

مضتْ ثلاثةُ أيام حتى قرر اسطة مهند أن يبحث عنهما في المستشفياتِ القريبة ، كان يطردُ فكرة موتِهما كلّما خطرتْ على باله و يتأملُ أن يكونا بخير في مكانٍ ما ، كأسبوع سرّيٍّ ينعزلانِ به من غير أن يضايقَهما احدٌ.. كانتْ هذه الأفكارُ هي المسيطرة.

وهذه هي الحياةُ ؛ في نهايةِ المطافِ راحلون ، ولكن ماذا تركنا وراءنا ؟ هل سنُذكَر بخير أم بشر؟

ذهب اسطة مهند واستفسر عن جثثِ من سقطوا في الهجومِ الذي استهدفَ السفارةَ المجاورةَ لمنزلِ كمال ، عرفوا من كانَ يقصد، اصطحبوه لثلاجاتِ الموتى.. بدا هذا الجسمُ غيرَ منتظم ، مهولَ الحجم.. لمن هذا يا ترى؟ أُزيحَ الغطاءُ و انعكسَ الضوءُ واصلاً لعينيهِ ، عكسهُ ذاك الخاتم الفضي.. نعم ! تبادرتْ تلك الصورةُ، تذكّر حماسه وسعادته عندما قال له :

- أيها العنيد أصبحتْ من نصيبك أخيرًا ؟ وهو يشيرُ نحو الخاتمِ ضاحكًا.

أجابه من تفحّم الآن :

- نعم يا عمّ ، سأخبرُك بكل شيءٍ لاحقًا.. فلنبدأ بالعمل لا أريدُ ان اتأخر عليها.

جَثا على ركبتيه وبدأ يصرخُ :

- لماذا كمال يا إلهي؟ دعهُ يعود وسأذهبُ مكانه.. لا يزالُ صغيرًا! أرجوك...

غرقَ بدموعِه الحارقة ، تجمع الاطباءُ والممرضون من كل مكانٍ حتى اخرجوه ليهدأ قليلاً.. كان سيموتُ قهرًا لو بقيَ هناك!

صارَ في حالةٍ لا توصَف ... مصدومٌ كأنه فاقدٌ عقله ، يخاطبُ نفسه:

- كلا ، حلقةُ كمال كانتْ أجمل.. إنها ليست له.

تركوه يهلوسُ و يتمتمُ حتى عاد رشدُه ، وبدأ بالحديثِ عن صِلته بكتلة الفحمِ تلك.

عاد الاسطة حزينًا بليدًا ، يسيرُ كطفلٍ تخطى مرحلةَ الحبي لتوّه.. ينقّبُ في رأسِه عن اية فكرةٍ عن طريقةٍ ما يدبّر جملاً يخبرُ بها عن الحادثةِ.

استمرتْ حالُه على النحو هذا، عرف الجميعُ بما حصل ولم يبقَ سوى الأهل! كيف سيكتبُ لهم؟ هل ستطاوعهُ الحروف؟ هل يوجد قلمٌ شجاعٌ يمتلك تلك الجرأة دون أن ينكسرَ قهرًا لما سيكتبُ؟

بدأت إدارةُ المشفى بالإلحاح على استلامِ الجثث ، هل سبق وان زرتم ثلاجات الموتى ؟ كلما فقدتم الأمل خذوا نزهة قاسية هنالك ستدركون مدى تفاهه الدنيا ...

لايمكنُه أن يكتم بعدَ الآن.

كتبَها ، كتبَ تلك القنبلةَ التي ستفجّر سعادةَ الأسرتين..

كانـوا يظنّـون أنّ الإمتحانـات قـد شـغلَتهما - حسـبَ مـا قالـهُ كـمال رحمـه اللـه في آخـرِ رسـالة - فلـم يُعـيروا تأخّرهـم عـن الـرد أيَّ أهميـة.

سيشاركنا ملاك محمد الصغير أيضًا ..

كان محمـد الصغـير يعشـقُ ترتيـبَ حديقـةِ المنـزل ، ينهـضُ مبكـرًا ليـمارس التأمـل ويسـتلهمَ افـكاره.

- صباحُ الخير ، لديكم رسالة.

نادى ساعي البريد المستعجِل. أجابهُ بصوتٍ غلبهُ النعاس :

- صباحُ الأنوار.. أجل إنه أخي! شكرًا جزيلاً.

أكمل ساعي البريد طريقهُ ومحمد دخلَ ليحضّر الشاي.

هـؤلاء الفنانـون يجـدونَ الجـمالَ في كلِّ شيء ، بالمناسـبة.. مـن هـم الفنانـون؟ أن تكـونَ فنانًـا تختلـفُ عـن النـاس الاعتياديـةِ في الرؤيـة ، تـرى الجـمالَ في كلِّ مـا حولِـك ، كلماتـك ، تصرّفاتـك ، وقبـل كلِّ شيء في قلبـك و أحاسيسـه الرقيقـة.

العاشـقون هـم مـن أتبـاعِ مدرسـة الفـنِّ الأزليـة ، إحـدى الأسـاطير الإغريقيّـة القديمـة تنـصُّ عـلى أنّ الفـنَّ ظهـر عندمـا حاولـتْ أنثـى متيمـة أن تصـوّرَ وجـهَ حبيبهـا عـلى جـدارِ غرفتهـا!

هـا قـد جهـزَ الشـاي ، جلـسَ و صـوتُ العصافـير يمـلأُ السـكونَ متلهّفًـا لتمزيـقِ الظـرف بقـوةٍ ملؤهـا اللهفـة لمـا كتـب.. يتـذوقُ الـكلامَ ، يـرى جـمالَ الجُمـل ، يتخيّـل أخـاهُ و زوجتـه وهـما يكتبـان ، ليتَـه يُكـثر مـن وضـع السّـكر لعلّـه يخفـفُ مـن مـرارةِ مـا سـيقرأ!

«بعـدَ السـلام..» بـدأتْ غرابـةُ الكاتـبِ تظهـر «هـذه ليسـت جمـل أخـي!» يقـرأ ويتحـدثْ مـع نفسـه حتـى وصـل إلى الجحيـم.. إلى الإنهيـار.. إنصبّـت حمـمُ البراكـينِ في حجـره بمجـرد قراءتـه تلـكَ الجُمـل.

بـدأ يقـرأُ ويـلاه ! أحتـاجُ مـا ملَكتـه بغـدادُ مـن قرطـاس في عصرِهـا الذهبـي ، أحتـاجُ بلاغـةَ سـيبويه لأصِـفَ مـا سـيقرؤه هـذا الرقيـق ، رأى إسـمَ الأسـطة يتصـدّر هـذه الرسـالةَ التعيسـة ، لمحـتْ عينـاهُ تلقائيًـا (لا تخـبر والدتـكَ يـا بنـيّ).. لم يكملْهـا ، رخـت أصابعـه فوقـع قـدر القـدر عـلى حجـرِه لعـلَّ حـرارةَ قلبِـه تنتقـلُ خارجًـا لِتُـوازنَ الإثنـين ، لم يـدري أنَّ جلـدَهُ قـد احمـرّ و ذابَ حتـى صرخـتْ أمُّـه :

- بنّي! ماذا جرى؟ لقد احترقتْ رجلُك ماذا حصل؟ اخبرني.

وهـي ترفـعُ القِـدرَ عـن حجـرِه وهـو يمسـكُ القنبلـةَ بعـد أن فعلـتْ فِعلتَهـا ومسّـها البلـل.

- لا شيءَ أمّي إنها مشاكلُ الشّركاتِ واحتكاراتِهم المقيتة.

مزّقها ونهضَ نحو الداخلِ ليرتدي ثيابًا يخرجُ بها إلى مكانٍ يُقيم فيه عزاءً سريعًا لأخيه الرّاحل.. نعم لقد رحلَ كمالُكم يا أحبائي!

كلُّكم ستفعلون ، يومًا ما سترحلُون جميعًا ولن يبقى سوى ما طبعتموه في قلوبِ البشر ثمّ عقولِهم ، إنْ أدخلكُم أحدهُم في قلبهِ أرجوكم لا تخذلوه.. لا تمزّقوه إربًا.. كونوا على قدَر الثقة و إن لم تستطيعوا أن تبادلوهُ الشعورَ فمِن الأجدرِ أن لا تأملوه !.

جلسَ في إحدى المتنزهاتِ يبكي ، هل شعرتُم يومًا بجِمم تخرج من عيونكم كاللهب في ذروةِ اللاسعادة.. تحرِقُ الخدودَ نزولاً و تذيبُ ثلوجَ الفرح ، لكنْها وُجدتْ لتثورَ نحو الخارجِ لا الداخل..

كلُّ ما نراهُ من أمراض ما هي إلا نتيجةَ الحزنِ الذي لايفرَغ.. أفرِغوا أحزانَكم رجاءًا ، ارموا بثِقله ولو على ورق يمزق أو كيسٍ لا يمكنُه أن يفهمَ غيرَ اللكم.

تذكّرَ رسائلَ أخيه . . . أخي البطل أنت رجلٌ قويّ ، لا تضعُف أبدًا ، لا تدعْ أمي ترى الخوفَ يومًا ، أعطاه دروسًا وها قد بدأتِ الإختبارات. ظلّ يبكي ويبكي حتى اهتزّ بدنُه مع اهتزازِ الجوال ... إنها أختُ العشقِ الذي جعلَ أخاهُ بهذه الحكمة (وراء كلِّ كمال رغدة) مثَل قدر المستطاع ، و لكنّ تونات العشاقِ لا يمكنُها الكذب ، بمجرّد إحساسِها بتعاسةِ محمّد ...

- أنا قادمة، لا تتحرّك من مكانِك.

- حسنًا.

لم تمضِ سوى دقائق و إذا بها تمسكُ يديهِ و تحدّق إليهِ بعمق ، لم يستطعْ أن يخفي شيئًا ، فبكيَا معًا حتى الاحتقان.. مرّت ساعات وهما جالسانِ في نفس المكان لا يحرّكانِ غيرَ الدّموع ، حانتْ لحظةُ الجدّيةِ التي لا بدَّ لها أن تأتي يومًا ما.

كونوا على قدَر المسؤولية ، ففي أيِّ يومٍ ستُضطرّون لاستقبالِها.

وضَعا الخطة . . . يجبُ أن لا تعلمَ الأمّهاتُ حتى إشعارٍ آخر، سيحملانِ السرَّ داخِلَهما.

مضتِ الأيامُ ومعها زادَ الاشتياق ، ظلّ محمد يكتُب رسائلَ مزيّفة كأنها من أخيهِ و زوجتِه. وفي يومٍ من الأيام دقتْ ساعةُ الخطر ...

- محمّد بني أُطلُب من أخيكَ أن يسجّلْ لنا تسجيلاً ويرسلَه، وأنا قد جئتُ بعدة أشرطةٍ اليومَ سجّلتُها له وسأطلبُ من عمتكَ أيضًا.. لقد اشتقتُ إلى صوتهِ المبحوح يا بنيّ.

- حسنًا يا أمي ، سأرسلُ له وسأطلبُ منه ذلك ، لقد اشتقنا لإزعاجِه المعهود.

وبدأ بالضحكِ وعيناهُ تملؤها الدموع.

- أيّها الشقيّ! لا تقل هذا.

- حاضر يا سيّدتي.

نهضَ نحو غرفتهِ حائرًا يرتطمُ بالحيطانِ كأنه مجنون ، ماذا سيفعلُ الآن؟ كيفَ يخبرُهم؟ مضتْ ثلاثةُ أشهرٍ وهو على هذه الحال . . . لا يأكلُ كثيرًا ولا ينامُ إلا ساعةً او اثنتين.

كيـفَ سـأخبرُكم بحالِهـا؟ لا زالـتْ تبـكي ليـلاً و تـسرح نهـارًا ، وباتـتْ أمُّهـا تتسـائل ، الكثـيرَ مـن الأسـئلةِ الموجعـة :

- عـذراء.. هـل تتخيّلـينَ رغـدةَ وهـي حاملٌ الآن؟ ربمـا قـد دخلـتْ في شـهرِها الخامـس، يـا اللـه كـم اشـتقتُ لتلـك العنيـدة!.

- أمّـاه، لا أعتقـدُ ذلـك ، كيـفَ لهـا أنْ تنجـبَ الأطفـالَ ولا زالـتْ في الجامعـة؟ .

ربما تريدُ أن تقلعَ هذه الفكرةَ من بالِ والدتِها.

- أصبتِ، عمومًا سأُرغمُها على أنْ تُنجِبَ لي حفيدًا !.

نظَـراتُ أمِّهـا الحنونـةُ وحـركاتُ يديهـا المتجعِّدتـينِ كادتْ أن توقِـفَ قلبَهـا خوفًـا، مـاذا سـتفعلُ يـاربُّ بعـد أن تعلـمَ مـا حـلَّ بعنيدتِهـا؟

مـرت أشـهر صعبـةٌ جـدًا أطاحـتْ بـكلِّ مـا يملـكُ العاشـقانِ مـن قـوِّة، وقـد حـضرَ موعـدُ تخـرّجِ طـلاب الجامعـات.. لا مفـرّ ولا عـذرَ يُقـال! جمـعَ محمـدٌ أفـرادَ العائلـةِ وطلـب مـن عذرائـه أن تـأتي بأمِّهـا أيضًـا، جلسـوا يتناولـونَ طعامَهـمُ الأصيـل ، أكلاتٌ شـعبيّة ترجـعُ بـكَ إلى أيامـكَ الخـوالي ، إلى الوطـنِ، رائحـةِ الأمّ، حتّـى عـوادمُ السـيّاراتِ هنالـك أحـنّ!

لم يسـأل عـن الشـايِ كعادتـه! ، ربمـا خـافَ أن تُعـادَ الكـرّةُ فيسـلخ جلـد أحدهِـم ..محمّـد يتوسّـطُهم ويقـول :

- أمّي، عمتي، لقد كذَبنا طوالَ هذهِ الفترة.. كنّا نكذبُ عليكُم.

خطفَ أنظارَ الجميعِ وأصبحوا يحدّقون إلى شفتيهِ بحِدّة.

هاتانِ الشفتانِ وانحناؤهما تذكّرُني بذاكَ الصغيرِ يومَ كان يشكو لكمال غيبةَ أبيهِ وشوقِه الحارق ، أنتمُ لا تكبرونَ أبدًا ، تبقى تلك التصرفاتُ الطفوليةُ الى الأبد..

- ما هذا الذي تقولُه؟ ما الذي حصلَ محمّد؟.

- أمّي، أخي وزوجتُه قد فارَقا الحياةَ منذُ ستّةِ أشهر.

هذه الأحرفُ المعدودةُ قلبتِ الجلسةَ على عقبِها . . . وقعتْ أمُّه مغمًى عليها، واكتفتْ عمّتُه بالنحيب حتى انبحَّ صوتُها ، اتّصل بمنى، وحمَل والِدتَهُ إلى غرفتِها.

آشور

طـوالَ أحـداثِ الروايـةِ تناولنـا أنـا -وإن صـحَّ القـولُ- زمـلائي في المهنـة.. أرجـو المعـذرةَ عـمّا قلـتُ لكـنْ هـذا مـا وجدْنـا أنفسَـنا عليـه منـذُ أن خُلقنـا نحـنُ رواةُ التفاصيـل . . . نرصـدُ الإنفعـالات، نسـتقبلُ المشـاعرَ بأنواعِهـا ، تلـك المبكيـةُ وهـذه الـمُفرحة والمخجلـة وكذلـكَ الدنيئـةُ ، كلهـا كلُّهـا.. نحـنُ مـن نرفـع التقاريـرَ فهـذه هـي مهنتُنـا المقدّسـة.

متعِبة؟ بل محطِّمة! كلا أنا حقًا لا اعرفُ كيفَ هي..

الآن.. أمُّ كـمال، هـذا القلـبُ المرهـفُ المثقـل كباقـي الأمهـات، هـؤلاءِ النسـوةُ بإمكانهـنّ أن يقـدنَ هـذا العـالمَ بـأسرِهِ بمـا كسـبنَ مـن تراكـمات المصائـب! يـا إلهـي سـاعدني عـلى كتابـةِ أحداثِهـا دونَ أن يتمـزق الكتـابُ بَلـلاً.

أفاقتْ وهي ترى العيونَ المتورمة ترمقُها بنظراتِها القلقة :

- محمّد ولدي أرجوكَ أخبرني.. ماذا حصلَ لأخيك؟.

- أمـي سـأخبركِ بـكلِّ التفاصيـل، أرجـوكِ لا تـؤذي نفسـكِ الآن، ارتاحـي قليـلاً وسـنتكلّمُ لاحقًـا.

- أخبرني الآنَ لا أستطيعُ الإنتظارَ بنيّ أرجوك!.

بـدأتْ تشـدّهُ مـن ملابسـهِ حتـى تلاشـت قوتُهـا و وقـعَ رأسُـها عـلى صـدرِه مستسـلمًا للبـكاء.. تعانقـتِ العائلـةُ الواحـدةُ بعـد انضـمام منـى، بـكى الجميـعُ وبـكى. لم يمزقنـا سـوى منظـرِ أمّ عـذراء ، كانـت صامتـةً طـوال الوقـتِ لم تتفـوه بحـرفٍ واحـد ، حتّـى دموعُهـا كانـت جامـدة..

ربما بكت دونِ دموع.

هل يحدثُ معكم ؟أن تضحكَ عيناك و ترقصُ سائرُ أعضائكَ بينما ينزفُ قلبك عبيطًا ؟ إذا كانَ نعم فهذه هي قوى الإدراكِ التي بها ستصنعونَ إنجازاتِ حياتِكم ، أما عذراءُ فكانت ملتصقة بحبيبِها منذ بدايةِ الجلسة. الوقتُ كفيلٌ بكلِّ الأمور ، دعوا جروحَكم وانكساراتِكم للأيام وستشفى شيئًا فشيئًا.. ستبقى الندوبُ كلٌّ حسبَ عمقِه ...

أقاموا عزاءًا بسيطًا في أحدِ الجوامع ، حضرهُ الأحبةُ والمعارف، يونس بكى كالأطفالِ! حتى ضمّه محمد وامتزجتْ تلك المشاعرُ الصادقة.

يبدو أنَّ مشاركةَ الأحزانِ تقلّلُ من شدّتها، لكن ماذا عن مشاركةِ الفرح؟؟ .

تكفّل أسطة (مهند) بمراسيم الدّفن ، أصبَحا قبرَين متلاصِقَين يقطّعُ القلبَ منظرُهما ، ما منْ زائرٍ مرَّ يبكي على أحبّائه الا وكانتْ لهما حصّة. كانتْ أمنيةُ أمّ كمال أن تزورَ ابنها ولو لمرةٍ واحدة لكنّ ظروفَ البلادِ تفاقمتْ كثيرًا ولم تهدأ طرفةَ عين ، لا يستطيعونَ الطيرانَ الآن لقد علِقت الرحلاتُ حتى الأمان.

فبعث الأسطة بصورة فوتوغرافية علقتها على صدرها ، كانت تقبلها وتشمها في كل اللحضات حتى اعتبرناها عضوًا من أعضاء جسدها..

مرت ثمان أشهر ...

بعد مشاورة أمّ كمال طلبت والدةُ رغدة من محمد أن يتزوّجا بأسرعِ وقت. محمد لم يكنْ يجرؤ على تذوّق طعم الراحة و أمُّه لا تزال ترى الكوابيسَ و الأحلام ، مَن سيضمُّها ويطَبطِبُ عليها إن تزوج؟ كلُّنا نعلم حينَ يتزوجُ الرجل تقومُ قيامتُه و يقعُ بينَ نارين لا ذنبَ فيها لأيّ أحد ، و لكنّها حربٌ مقدّسة خالدة تستمرُّ كلّما وُجدت أمٌّ حنونةٌ وعاشقةٌ مجنونة.

- محمّد.. لقد تكلّمنا أنا و امُّك في هذا الموضوعِ وهي تؤيّدُني، يا عزيزي لا داعيَ للتأخيرِ، كلُّنا حزينونَ ولكنَّ خيرَ البِرّ عاجلُه، دعنا نرى أحفادَنا يلعبون ، أنا و امُّك عانينا بما فيهِ الكفايةِ بنيّ.

كانت دموعُه تحرقُ وجهَه المشعر و تنزلُ على لحيتِه الكثيفة، ولا جوابَ يردُ غيرُ المياهِ المالحةِ. أوَليسَ السكوتُ علامةَ الرضا؟

كالبرق سارت الأيام ، هذه هي ايامكم ويل لكم ان لم تعملوا ماتحبون ، أن لم تدخروا للقادم الموجع بتذوق الحلو الخاطف ...

أشور

- ماذا فعلتَ أيها الشقيّ؟ هل ضربتَ أحدَهم مجددًا ؟.

- لقد اعتدوا عليّ أولًا.

- هل تذكرُ الدرسَ الأول؟.

- دافِع عن نفسِكَ فورَ لحظةِ شعورِك بالخطر.

- يالكَ من شقيٍّ! تعال لحضنِ أبيك.

- جدتي! لقد لقنتهُم درسًا لن يُنسى، لم أكن أحملُ هاتفًا و إلا صوّرتُ تلكَ الوجوهَ المتضرّة.

- يا كماليَ الشجاع! سأرى صاحبَ الأسواقِ لعلَّ كاميراتِه التقطتْ إحدى حركاتِك الرائعة.

لقد أنجبَ محمد كمالًا صغيرًا عوّض شيئًا من نقصانِ النسخةِ الأصليةِ وستبقى خالدةً ، بكلِّ نظرةِ حبٍّ يرمقُها محمّد ، بكلِّ قبلةٍ صباحيةٍ تراها أمُّه فتتخيّلُ الجنديَّ و معشوقَته.

العاشقُ الحقيقيُّ تخلّدهُ المواقفُ و الأيامُ و ذاك الجبانُ الزائفُ تخلّدهُ الإنكساراتُ و الخيباتُ التي سيتركُها في قلوبِكم ، حتى يأتيَ الشجاعُ و يمحيها إلى الأبد.. عجلةُ الحياةِ تمضي ولا تتوقفُ عند أيٍّ منعطفٍ مهما كانَ حادًا ، قد تخفّفُ قليلاً من سرعتِها ثم تنطلق مجددًا ، ولكن كونوا حذرينَ ودقيقينَ لكي لا تُعاوِدوا التعثّر في نفسِ المنعطفات.. ربما لستُ من جنسِكُم ولا فئتِكُم العمريّة لكنّني سأكتبُ لكم بكلِّ صدق وحبّ ، سأكتبُ لكَ أيّها الزوج ، أيها الحبيب، أيها الأخ..

كم من فتاةٍ تُركتْ وحيدةً وسطَ مجتمعٍ ذكوريّ جاهل ظالم حتى أصبحتْ (....!) كم من مراهِقةٍ بريئة لم تجد أبًا يُجيد الصداقةَ فوقعتْ في شباكِ صائدٍ مسعور؟ هذا دورُك يا رجل . . . كن صديقًا لها ، كن بئرًا عميقًا لكلِّ أسرارِها ، أنت رجلُها الخارق فأجعلْ من فتاتِكَ سهلاً ممتنعًا.

أمّا أنتَ يا أخاها . . . تخيّل معي أنكَ جالسٌ و إياها في مكانٍ ما وإذا بصديقٍ مقرّب يحضُر ، هل ستُقدمُ على تعريفِها له وتكمِلونَ جلستَكم وتتناقشون ببعضِ أبرزِ الأحداثِ سويًّا ؟ هنا تبثُّ الثقة، هنا تخلقُ القوة. غريبٌ أنت ، بإمكانكَ خوضُ الحب و القتالُ لأجلِ حبيبتِكَ وهي لا تستطيعُ ذلك؟ رجولتُك تكمنُ في سعادتِها، اجلس مع حبيبِها وأخبرها أنكَ ستبذُل جهدًا حتى تصبحَ من نصيبِه! هذا ما يفعلُه الأشدّاء ، أمّا صراخُك وتعنيفُك فسيجعلُ منكَ نكرةً لا أكثر ، بإمكانِها أن تلتقيَ معه حتى في الأفكار.. حجزُها وخنقُها لن يجديَ نفعًا يا رجل .

لا تكنْ سببًا في ضياع المجتمع أتوسّلُك ، أنثى مهزوزةٌ ضعيفة ستخلقُ جيلاً مهزوزًا ضعيفًا وضيعًا.. لا تكن سببًا و مصدرًا لذلكَ الضَّعف.

وأنتنّ كفاكنّ جفاءًا ! كنَّ على مقربة.. يا أيتُها الأمُّ كوني صديقةَ ابنتِك المميّزة ، تكلّمي معها عن وَسامةِ الشباب ، عن طرُق البهجة.. لا تحفري الخنادق! اجعلي منها أنثى لا تُقهر ، واثقةً مثابرة .. دعكِ مما تربّيتِ عليه فلكلِّ زمانٍ أساليبُه...

نحن فخورون جدًا بما روينا ، كل ما نتمناه أن تجعلوا من تفاصيل

حياتكم قصصًا و روايات تشرف كل من يمر بها ، أن لم تكن فابدأوا حالًا بنشر الحب و السعادة آمنوا بقوانين العطاء و المحبة ! ، كلما بذلتم و زرعتم أكثر حصلتم عليه لاحقًا و من حيث لا تدرون..

أنتم من تصنعون الواقع ، لا شيء يمكنه أن يفرض نفسه!

هذا ما يميزكم يا بني آدم ..

- تمت -